دكتور إلدر



S. P. C. K.
C. M. S. BUILDING
BOULAC,
CAIRO.

Name : Unknown Disciples

Edition: First Edition

Date of publication; June 1954

Number Published: 5000

Number of Pages: 128

Total Cost: 166 Pounds

Selling Price: 80 mills

Reception: Cant tell (New)

Subsidy granted: 75 Pounds

Objectives: Biographies of lesser known disciples in the Gospel

المجهولون في الكتاب

سير مختصرة لبعض الشخصيات المجهولة

في الانجيل الكريم

تأليف

دكتور الدر

نقلها الى العربية

حبيب سعيد

صدر عن إدارة التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية بمصر

S. P. C. K. & A. C. L. C.

مطبعة النيل المسيحية

تقديم الكتاب

نشطت في الخمسين سنة الأخيرة حركة المؤتمرات الدولية المسيحية التي تضمُّ الزعماء والقادة من كل أنحاء العالم ، ومن كل الاجناس والالوان ، ومن مختلف الثقافات والبيئات . وانه لما يثلج صدورنا أن نشهد زعماء المسيحية من أبناء الهند والصين وأفريقية، يجلسون جنباً الى جنب، مع الزعماء والقادة في أميركا وأوربا والشرق الادنى ، لوضع الخطط والتدابير لنشر الدعوة المسيحية في العالم ، وإذاعة رسالة الانجيل بكافة اللغات و بين كل الشعوب ، وتوطيد دعائم الكنيسة في أقاصي الأرض .

على أن المسيحية — وهي اكبر حركة عرفها التاريخ — لم تنتشر رسالتها بهذه الجهود المشتركة المنظمة فقط . فقد بدأت الحركة في قرونها الأولى على اكتاف فئة قليلة من الدعاة والبشيرين ، وازدهر ملكوت الله بأيدي نفر قليل من التلاميذ الذين لم يذكرهم التاريخ إلا قليلاً . ولقد شهد كل عصر من عصور المسيحية رجالاً عظماء ، حملوا لواء الدعوة ، وتوّج التاريخ هاماتهم بأكاليل الغار ، ولكن كان الى جانبهم كثيرون من العاملين الأخيار الذين عاشوا حياة نبيلة ، وجاهدوا جهاداً حسناً ، و بذلوا تضحيات كريمة في سبيل رسالة الانجيل ، ولكنهم ذهبوا منسيين بعد أن ساهموا بهذا النصيب الوافر ، دون أن يسجل التاريخ أسماءهم على صفحاته .

ألم يأتك نبأ « تشارلس فني » أحد كبار الواعظين والدعاة في أميركا ؟ كان طالباً يدرس القانون ، وفي أثناء دراسته أدّى به المطاف الى كنيسة

في مدينة صغرى بولاية نيويورك ، كان يُدعى راعيها « جيل » . وقد أحبّ هـذا الراعي الطالبَ الوافد الى كنيسته ، وأعجب به، وتولاّه بالرعاية والعناية ، حتى استماله الى الخدمة الدينية . واليوم بات « جيـل » صاحب الفضل ، رجلا منسيا ، وهو الذي وَلَدَ في المسيح الواعظ القـدير « تشارلس فني » .

وهل يذكر الناس اسم ذلك الانسان في اليابان الذي وقف وراء « كاجاوا » الياباني يدفعه ويؤثر فيه ، ليعتنق المسيحية ، ويغدو أعظم مصلح اجتماعي شهدته بلاد الشمس المشرقة ؟

ومَن ذا الذي يذكر اسم أم القديس أوغسطينوس ، التي مزجت صلواتها بدموعها ، فاستجاب الله لها في حياة ولدها القديس العظيم ؟

إن المسيحية مدينة لأولئك المجهولين ، الذين أدّوا واجبهم صامتين ، وجازوا الى المجد مكلّلين . وهذا الكتاب الذي نقدمه الآن للقراء الكرام في بلدان الشرق الادنى ، عن الرسل المجهولين في القرن الاول، قد يجد فيه المسيحيون العاملون عزاءً وسلوى ، وقد نستمدُّ منه نحن أبناء القرن العشرين ، إلهاما وهدى . ولئن كنا لا نحتلُّ مراكز الجاه والصدارة ، فاننا مستطيعون أن نقفو آثار أولئك الشهود الامناء ، ونحذو حذوهم في خدمة ربنا وإلهنا ؟

فهرس



بَرْنابا القبرسي



برنابا

الاعتقاد السائد أن الكنيسة المسيحية في العصر الاول انما هي نتاج الجهود التبشيرية التي قام بها الحواريون رسل المسيح الاثنا عشر ومعهم الرسول بولس . وقد نميل ، ونحن مسوقون بوازع إطراء الجهود الفائقة التي بدت في حياة الجماعة المسيحية الأولى ، إلى اهمال شأن الذين لم تُذكر أسماؤهم في رواية العهد الجديد إلا قليلا ، و إغضاء النظر عن أعمالهم . ومع إكبار تلك الغيرة المتقدة، وذلك الولاء الحق، اللذين ظهرا في الشخصيات البارزة ، ينبغي ألا نغض الطرف عن ذلك القسط الوافر الذي ساهم به أفراد لم يظهروا على مسرح الحوادث إلا قليلاً . والواقع أن كثيراً منهم قد لعبوا أدواراً فنية ماهرة في تطور الكنيسة العالمية الجامعة التي وضعت العالم بأسره قبلة أنظارها وهدفاً لمساعيها .

وأول شخص جدير بالتفرّد بين الالوف التي آمنت بالسيد المسيح بعد حلول الروح القدس، هو يهودي قبرسي يدعى « يوسف » سمّي فيما بعد « برنابا » . ويُذكر عنه أنه رافق بولس الرسول في رحلته التبشيرية الاولى، ثم افترق عنه لخلاف في الرأي حدث بينهما حول مرقس . وهو محسوب

بسبب كُنيته خطيباً جمهوريا عظيم الشأن ، وواعظاً امتاز بقوة التأثير . غير أنه خلال مرافقته بولس ، كان لهذا الاخير فضل التقدم عليه ، وناب الطرسوسيُّ عنه ونطق بلسان الاثنين معاً . أما الخدمة العظمى التي أدّاها برنابا للكنيسة فكانت شيئاً آخر غير هذا . فهو النموذج الاصيل ، والمثل الاعلى، للمسيحية في الشركة والألفة .

أما الاسم « برنابا » في اللغة اليونانية فمعناه « بارقليس » أي « ابن الوعظ ». وأصل هذه الكلمة هو اللقب الذي أُطلق على الروح القدس : « بارقليط » المترجَم في الانجيل بكلمة «المعزّي» . وتحمل هذه اللفظة ثروة من المعاني . فهي أكثر من « واعظ » إذ تتضمن فكرة المعزي والمدافع ، فكرة قوامها استدعاء شخص الموقوف إلى جانب آخر وإسناده . لماذا ؟ ألاوعظ والحثّ . نعم فقد قال يسوع : «ومتى جاء المعزي (البارقليط) يشهد لي ويعلّمكم كل الاشياء ويبكت العالم على خطية »، ولكن للعزاء أيضاً بدليل قوله : « أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر . . . لا أترككم يتامى » . وربما كان أفضل وأكثر شمولاً للمعنى لو تُرجمت كلمة « بارقليط » بالمعزّز ، لا بالمعزي .

والاسم « برنابا » ينبو عن الصفة البارزة في ذلك الانسان . فقد كان سنداً ونصيراً في وقت الشدة والمحن ، إذ بادر الى إغاثة المضطربين المتضايقين.

وكان حصناً وملجأ للمخذولين والمستوحشين الذين لا صديق لهم . وكان ابناً صادقاً لروح الحق والعزاء .

ويُذكر عن خدمته الأولى حوادث ثلاث : « كان له حقل باعه وأتى بالدراهم ووضعها عند ارجل الرسل » (أع ٤ : ٣٧) « فأخذه برنابا (والهاء هنا تعود على شاول الذي دعي فيما بعد بولس) وأحضره الى الرسل » (أع ٩ : ٢٧) « ولما وجده (والهاء تعود على بولس أيضاً) جاء به الى انطاكية » (أع ١١ : ٢٦) .

وكان برنابا هذا من قبيلة او سبط لاوي، احدى عشائر بيت اسرائيل. وهم الذين كانوا يعاونون في عبادة الهيكل . وكان أسلافه قبله قد خدموا الله عن طريق المنح والاعطاء ، فحملوا خيمة الاجتماع وتابوت العهد، ولم يُعطوا نصيباً في أرض كنعان عند اقتسامها، فلم يحتازوا أرضاً . والظاهر أن برنابا امتلك حقلاً عن طريق ما . ومع أن هذا الحقل كان كبير القدر في نظره إلا أنه لم يتوانَ في بيعه واحضار ثمنه الى الرسل ، عندما أعلنت جماعة المؤمنين إبّان الضيق ان ممتلكات الفرد ليست خاصة له . وهو بهذا العمل قد اظهر نفسه شخصية ممتازة في حركة اشتراكية المقتنيات، اذ لم يتوان في اعطاء ما يمتلك و بذل كل شيء لنصرة المبدأ الذي دان به وأحبّه .

وقد قيل ان الباعث الاهم الذي رغّب التلاميذ في جعل كل شيء بينهم مشتركا

هو ترقبهم مجيء سيدهم عاجلا . ولذلك احتقروا كل المقتنيات العالمية ولم يعبأوا بها شيئاً . وليس لهذه الفكرة أثر في العهد الجديد . وقد ظن البعض انه كان لزاماً على كل مَن انضم الى تلك الجماعة الاولى ان ينذر الفقر . غير ان من يبحث بامعان في الفصول الاولى من سفر الاعمال، يتبين له انه لم يكن هناك نظام قانوني جامد لاعادة توزيع الثروة ، ولم يكن هناك انكار لحق الملكية الفردية . بل كانت هناك حاجة صارخة ، فلجأ التلاميذ الى هذه الوسيلة لاشباع تلك الحاجة الملحّة .

ولم تكن الكنيسة الاولى نادياً يضمّ قوماً من اليهود ذوي الآراء المتشابهة الذين توقعوا عودة زعيم غائب عنهم، ولم تكن جمعية تعاونية ينال كل عضو فيها نصيباً مشتركا . بل كانت جماعة من الناس توثقت بينهم روابط الالفة المشتركة، لانهم ارتبطوا واتحدوا معاً في المسيح . ومالوا الى مشاركة بعضهم البعض في حطام الحياة، لأن الله أشركهم معه في كل شيء لديه .

حلّ الروح القدس على التلاميذ لما كانوا معا « بنفس واحدة في مكان واحد » . وكان حلوله « كألسنة منقسمة من نار » . ولكن لم يكن نور ذلك الروح وقوته من عوامل الانقسام والفرقة. وقد قال الاستاذ « فينه » الفرنسي: « الروح القدس هو الله المشترك » . وكان التلاميذ عند امتلائهم بهذا الروح أبعد الناس عن الفردية الذاتية . « وجميع الذين آمنوا كانوا معا وكان

عندهم كل شيء مشتركا . وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات » .

وربما كان بين البواعث الى هذه الحياة الاشتراكية، الرغبة في استرجاع الشركة التي تذوقوا عذوبتها مع سيدهم حين كان معهم على الارض . وكانوا كلما اجتمعوا لكسر الخبز يستذكرون حديثه معهم في العشاء الاخير : « هذه وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضا كما احببتكم أنا . ليس لاحد حب أعظم من هذا أن يضع حياته لاجل أحبائه » .

ونحن نرسم عادة خطاً فاصلا - نرسمه بعزم وفي إصرار - بين الحاجات الروحية والحاجات الزمنية . فهل يفصل انجيل يسوع المسيح بينهما ؟ ان الاشتراك في مشاكل الحياة في الكنيسة الاولى، لم يكن إلا مظهراً قلبيا للشركة المتبادلة ولم يكن الرسل الاولون قد عرفوا شيئا من علم الاقتصاديات سوى الولاء والاخلاص بين أفراد الاسرة الواحدة . وكان قد بقي نفر كبير منهم في أورشليم للتعليم والشركة المتبادلة، ونضب معين أموالهم . واستبدل آخرون أموالهم بنقود . وكان كل منهم حراً لان يحتفظ بما لديه . ولكن لم يدّع أحدهم أن ما يملكه خاص به دون سواه . وطبعا لم يخلُ الامر من العيوب والسوءآت . فكما أن غيرة الكنيسة قد أنجبت أمثال برنابا فانها أزاحت الستار عن رياء حنانيا وسفيرا . وحدث بعدئذ تذمر فيما يختص بتوزيع أنصبة الفقراء . ولكن كل هذه الامور لم تنقص مثقال ذرة من كَرَم الكنيسة

ومحبتها وولائها في العصر الاول ، وما بذلته من تضحية ونكران للذات .

ومما يجدر بنا مراعاته أن هذا حدث فقط داخل نطاق الكنيسة. ولم يرو قط عن المسيحيين أنهم - حتى ابان الاضطهادات المريرة - عمدوا الى اثارة العصيان والفتن السياسية أو الاقتصادية . وكان من المبادىء العظمى التي برزت في هذه الشركة المتبادلة في الكنيسة، ذلك النموذج الحي الذي أبداه برنابا في تضحيته وتكريس نفسه وماله . لقد كانت حياة الجماعة المسيحية أعظم جداً من كل المقتنيات العالمية. فاذا حاقت الآلام أو المصاعب أو النكبات أو الويلات بجزء من الكنيسة ، تألم من جراء ذلك جسد المسيح كله .

وليس يعنينا فقط أن نضع أسس الشركة المتبادلة في الكنيسة، بل هناك جهد آخر لا يقل عن الاول صعوبة ، هو توطيد دعائم هذه الشركة . وقد تخلق الغيرة نواة هذه الشركة، ولكن الآراء التحزبية وسوء التفاهم يجعل حياتها في خطر . وقد تتولد الظروف المعاكسة أحيانا من جراء التحاسد ، فتهدد كيان الشركة المسيحية. ولذا نرى في الحادث الثاني المأثور عن خدمة برنابا الأولى أنه يجيء ببولس المهتدي الجديد إلى الرسل في أورشليم . وكان المضطهِد قد صار مضطهَداً . وارتاب التلاميذ الأولون ، وكثير منهم قد أودع السجن بسببه، في حسن نواياه وبواعثه. « كان الجميع يخافونه غير مصدقين أنه تلميذ»، وظنوه جاسوسا يتجسس عليهم للغدر بهم .

وبعد الرؤيا في طريق دمشق، وبعد اهتدائه، وبعد سنوات التأمل والانقطاع التي قضاها في البيداء العربية، بعد كل هذا ارتابت كنيسة أورشليم في أمر بولس وساورها الشك في اخلاصه. وكانت شهرته كمضطهد قد سبقته الى دمشق. فعودته منها كانت مدعاة للخوف والرعب. ولم يكن قد بلغ الرسل في أورشليم شيء من الأخبار عن صيرورته شاهداً للمسيح. وها هو الآن يخضع لإذلال مزدوج. فالأصدقاء القدماء قد صاروا له عداة، والأعداء القدماء لم يصيروا بعد أصدقاء. وفي الوقت الذي لم يقبله أحد من الكنيسة نهض برنابا إلى مصادقته. ودافع عنه أمام الكنيسة. مطالباً أن تتسع شركتها لتضم تحت لوائها، حتى الذين جنت أيديهم خراباً وتدميراً. وإن قضى علينا السير وراء المسيح أن نحب أعداءنا، فبالأولى أن نحبهم متى صاروا أولياء للسيد الذي نخدمه.

وتقول التقاليد إن برنابا وشاول كانا تلميذين معاً، تلقيا العلم عند أقدام غمالائيل. وقيل إن القبرصي والطرسوسي كانا زميلين عدة سنوات في أيامهما الدراسية وربما يعلل هذا بعض التعليل دفاع برنابا عن شاول والوقوف إلى جانبه. وكان الأمر يقتضي شجاعة وحصافة، كما يقتضي عطفاً وإخلاصاً. وقد تمكن برنابا بقلبه الكبير ونفسه الثاقبة من تخطي ثغرة كان ممكناً لها أن تهدد روح التناسق والتآلف في كنيسة المسيح.

وأنتم تذكرون أن الانقسام في هيئة المؤمنين لم يكن مردّه الى الخلاف

على مسئلة لاهوتية فقهية . فان الفوارق في التعليم لم تكن قد ظهرت بعد . ولم يقاوم شاول تعاليم أورشليم في أمر يتعلق بشخصية المسيح، ولم يختلفوا في أوصاف الله وصفاته . كما أنه لم يكن ثمت نزاع حول سياسة الكنيسة . إنما كان سبب سوء التفاهم وضياع الشركة هو فقدان الثقة المتبادلة . وكم من مرة نشأ الانقسام في تاريخ الكنيسة عن الريبة والشك ، أحياناً حول مسئلة هامة خطيرة ، ولكن في أغلب الأحيان حول نوايا وولاء الزملاء في المسيحية .

ونعتقد أن انقسام جسد المسيح ، أي كنيسته في هذا العصر ، يلقي لوماً عنيفاً وتوبيخاً قارصا على كل الذين يحملون اسمه الكريم . فالنعرة القومية قد أنفذت مخالبها أحيانا فشطرت وحدة الكنيسة وعبثت بشركتها المتآلفة، وهي تعمل منذ القرن الرابع في عصرنا هذا على إثارة عوامل الفرقة والانقسام . وحتى في هذا العصر نرى التشبث بالخواص الجنسية والقومية يعلو فوق المسيح الجامع للبشرية، ويؤثر البشر تلك النعرة على الخضوع تحت لواء المسيح العالمي الجامع . والآن تبذل الجهود في بعض البلدان لتوحيد الجماعات المسيحية المختلفة . وانها لمهزلة في حق شركة جميع المؤمنين حين يستثنون قوما من المسيحيين لأختلافهم في الجنس أو الثقافة ، مسوقين إلى ذلك بروح فقدان الثقة والتعصب الأعمى . ولا تجيء الوحدة الحقيقية عن طريق إنشاء اتحاد كنسي محبوك النظم ، إنما تجيء عن طريق العطف المتبادل

والشركة الكاملة، كما بدا انا في ذلك التلميذ الأمين برنابا، الوسيط والصديق لغير المرغوب فيهم.

والشركة المتآلفة في المسيحية لا تقوم فقط على روح التجرد من الذات والتضحية الخالصة، ولا تقوم فقط على أساس من الوحدة أشبه بوحدة الجسد المتناسقة. إنما يجب أيضا أن يُذاع أمرها وتعلن قوتها. وكانت الكنيسة في أورشليم قد أرسلت برنابا إلى أنطاكية عاصمة سورية ليبحث مدى تقدم الكنيسة هناك. ولما شهد نعمة الله، وأدرك قيمة تقدم الكنيسة وسيرها بخطوات متتابعة إلى الأمام، ذهب إلى طرسوس ليبحث عن بولس. وإذ قد وجده جاء به إلى أنطاكية. وظلا يعملان معا مدة سنة كاملة، علما فيها أناساً كثيرين. فلم يكتفِ برنابا بوضع ثروته ومقتنياته تحت تصرف الكنيسة، ولم يكتف بالسعي لتوطيد روح التآلف الأخوية فيها والتوفيق بين بولس وبين الكنيسة في أورشليم، لكنه أحضر بولس بمواهبه الغزيرة الفائقة ليخدم في أنطاكية ويمتد ملكوت الله.

ولم يرسل التلاميذ في أورشليم أحداً من الأثنى عشر الأصليين لبحث الأحوال في العاصمة السورية. لأن أحداً منهم لم يكن كفؤاً لتلك المهمة الخاصة مثل برنابا، الذي لم يكن مفكراً نابها ولا لاهوتيا حصيفا، ولكنه كان رجلاً كبير القلب والنفس، رأى عن بعد في أحلامه وآماله الكنيسة جسداً واحداً تضم جميع المؤمنين في شركة واحدة.

وقد أدرك بفطرته وقتئذ أن الوصول إلى الامم في أنطاكية واكتسابهم إلى المسيحية، يتطلب شخصا ذا ثقة واسعة، وشجاعة نادرة، وتكريس عميق، وذهن رائق. وعرف ما في نفسه من عجز عن القيام بهذه المهمة الخطيرة، ولكن هناك شاول في طرسوس بحماسته المتقدة بالنار، وغيرته التي لا تعرف الكلال. هو رجل الساعة. فذهب اليه في شعور عظيم من نبل القصد ومحو الذات وإنكارها، وأحضره إلى العاصمة الجديدة للدين المسيحي. وكان مثله في ذلك مثل يوحنا المعمدان الذي قال عن سيده: « ينبغي أن هذا يزيد وأنا أنقص »

قد ضحّى برنابا بكل شيء للدعاية لشركة الايمان والرجاء والمحبة!

استفانوس الشهید الاول



استفانوس

لنا تاريخ الكنيسة الأولى المسطور في سفر الاعمال ألفة محبوكة العرى بين اتباع المسيح وأنصاره. غير انه نزل بهذه الوحدة المتماسكة في فترة قصيرة من الزمن شيء من الشقاق الذي ينشأ عادة من جراء التمسك بالحزبية والتشبث بفكرة معينة وما بقي المسيحيون على فكر واحد، لم يقوَ أي صنف من صنوف الاضطهاد على هدم الكنيسة. وما بقيت روح الغيرة والحماس في أعلى درجات حرارتها، لم يكن ثمت داع للخوف. وحتى الحالات الفردية التي برزت فيها الانانية والكبرياء — كما في حادثة حنانيا وسفيرا — لم تكن لتقوى على إفساد مجرى التناسق والاتحاد الذي سار فيه أنصار ذلك الطريق. فان أحداً لم يتصدر للدفاع عنهم والمناضلة في سبيلهم. بل كان كل منهم فرداً قائماً بذاته. ولم يظهر لهم اتباع يعمدون الى انشاء نادٍ باسم حنانيا أو جمعية باسم سفيرا.

ولكن « اذ تكاثر التلاميذ حدث تذمر من اليونانيين على العبرانيين » (اعمال ٦ : ١) وكان شعب اليهود في عصر المسيح منقسما الى فريقين كبيرين : العبرانيين أو يهود فلسطين ، واليهود اليونانيين وهم الذين يُعرفون « بيهود الشتات » ، أي الذين تبعثروا بعد السبي الى ما وراء حدود فلسطين. وكان الفريق الاول يتكلم اللغة الأرامية ويتمسك أشد استمساك

بالعوائد والتقاليد التي توارثوها عن موسى والانبياء . وكان قد نفث فيهم من عصر المكابيين روح قومي شديد . واذ قد نسوا النبوات المتعلقة بخضوع ملوك الارض وإقرارهم باسم « يهوه» اله اسرائيل ، صاروا أشد ميلاً وأقوى رغبة الى سقوط العالم الوثني ووفنائه ، لا الى تجديده واكتسابه الى دين الوحدانية الذي دانوا به . وبصفة عامة احتقروا الحضارة اليونانية وكل ثقافة أو لغة لا تمت بصلة الى الاصل العبراني . وقد سجل التلمود قولاً معروفاً شائعاً بينهم : « ملعون كل من يثقف ابنه بعلوم اليونان » .

أما الفريق الآخر وهم اليهود اليونانيون ، فكانوا من الجماعات المبعثرة بين الشعوب الوثنية . وقد سعوا الى ايصال دينهم اليهودي الى عالم الامم الوثنية التي استعملوا لغتها ومالوا الى علومها وآدابها . وكانت فتوحات الاسكندر الكبير فرصة سانحة للشعب اليهودي ، اذ هيأ لهم سبيل الهجرة الى ارجاء الامبراطورية . وقد قدر « فيلو » الاسكندري عددهم في مصر فقط بمليون نسمة . كذلك أباحت لهم الامبراطورية الرومانية — وقد انطوت سياستها على تبادل الاديان — انشاء المجامع اليهودية في كل أنحاء العالم المعروف يومئذ. وكانت تلك الجماعات اليهودية بناموسها الموسوي وطقوسها وتقاليدها وتوراتها اليوناني أشبه بجزر صغيرة وسط البحر الوثني الخضم ، الذي عجت فيه العبادة الوثنية في مختلف أوضاعها . وفضلاً عن ذلك فان كثيرين من يهود الشتات قد اتقدت في قلوبهم نار الغيرة للدعاية لدينهم ، فكانوا يطوفون البر والبحر ليكسبوا دخيلاً واحداً .

وكان تلاميذ يسوع الأولين جليليين، ولذا كانوا من فريق العبرانيين .
ولكن من يوم الخمسين فصاعداً انضم الى اتباع المسيح عدد وافر من اليهود اليونانيين . ولما تكاثر العدد ثار التذمر . وفي الجماعة الصغيرة أو الرهط القليل من البشر، قد تتوالد بواعث الغيرة والحسد، اما تكاثر العدد فيخلق دائماً فرصة للتذمر بسبب الحزازات الحزبية . وبدأ الاضطراب الحقيقي حين أخذ اليهود اليونانيون يقارنون الاعانات التي امتوات عليها أراملهم بالاعانات التي كانت تعطى لأرامل العبرانيين . « كن يغفل عنهن في الخدمة اليومية » . ولم تكن الحالة أشبه بحالة حنانيا وسفيرا اللذين تساءلا عن كثرة عطائهما أو قلته ، وانما تطور الحال فصار التساؤل حول الأخذ من عدمه . ومتى صار « الأخذ » وليس «العطاء» ، المطمح الاول للتلميذ أو المريد ، فقل على الدنيا العفاء . عندئذ تلوح بوادر الخطر والاضطراب .

وقال الرسل الاثنا عشر « لا يرضي ان نترك نحن كلمة الله ونخدم موائد» . وهل معنى هذا ان خدمة الارامل الفقيرات خدمة وضيعة لا تليق بكرامتهم ، أم ان واجباتهم الكثيرة تحول دون أداء هذه الخدمة النبيلة المقدسة في العناية بالفقراء والمعوزين ؟

ونحن لا يسعنا على أية حال الا الدهشة حيال هذه النخوة والشهامة في موقف المسيحيين العبرانيين بزعامة الرسل أنفسهم . فهم لم يقولوا : « ان لم ترق في نظركم طريقة توزيع الصدقات، فتولوا أنتم أمر فقرائكم ، ونتولى نحن أمر فقرائنا » . انما اشاروا بتعيين سبعة رجال للاشراف على عمل الاحسان

في الكنيسة واشتركوا هم في انتخابهم . وكان المنتخبين كلهم من حزب اليونانيين . فان اسماء الجميع يونانية ، وكان أحدهم دخيلاً والباقون يهوداً يونانيين . ولئن يكن قد ثار بين القوم شيء من سوء التفاهم والشكوى ، الا أن هذا لم يكن الا اختلافاً في الرأي ، ولم يبلغ حد العداء والخصام . وساد روح الوحدة والالفة فوق التذمر ، لان الروح القدس جعل الإيثار فوق الأثرة .

— ١ —

وكان أبرز الأعضاء السبعة استفانوس ومعنى اسمه « التاج » ، كأنه نبوة عن تاج الاستشهاد الذي كان مزمعاً ان يكلل هامته . ومما يسترعى أنظارنا طبيعة المهمة التي أوكلت الى استفانوس . كان مشهوداً للسبعة بحسن الأحدوثة ، رجالاً مملوئين بالروح والحكمة . امتازوا بعلاقة مثلثة : بالله وباخوانهم وبانفسهم . فامتلأوا بالروح اذ كرسوا أنفسهم لله ، ولا شيئة البتة في معاملاتهم مع زملائهم واخوانهم ، ونالهم من الاختبار والدرس قسط وافر من الذكاء وحسن تصريف الأمور . وانه لخلط غريب أن يقوم بخدمة التعليم رجال كانوا في نظر السلطات الحاكمة جهلاء غير مثقفين ، وان يقوم بالاشراف على أحوال الفقراء رجال من ذوي الثقافة والعلم .

ويبدو استفانوس بين الشخصيات التي سجلها العهد الجديد أقرب الجميع شبهاً الى المسيح . وهو يتفرد بين التلاميذ في مشاركة سيده صفاته وأخلاقه . ومع ذلك لم يروَ عنه انه صنع معجزة . والذي نعلمه ان عجائبه ومعجزاته لم تكن الا اعمالاً صغيرة من أعمال الرحمة في عنايته بالفقراء والمعوزين . ولسنا ندري كيف صار مؤمناً من المريدين ، ولا نعلم ماهي

المؤثرات التي تأثر بها حتى اتبع يسوع . ولكن نعلم شيئاً واحداً من الفترة الوجيزة التي قضاها في أحضان الكنيسة، وهي ان حياته قامت على شيء كثير من الشجاعة الجيدة والولاء الصادق .

ونحن نذكر ان الأزمة الكبرى في خدمة يسوع وحياته العملية نزلت به عقب إشباعه الخمسة آلاف. فان كثيرين من التلاميذ الذين تبعوه ارتدوا على أعقابهم وانفضوا من حوله . وذلك لأن يسوع صدمهم صدمة هائلة عندما قال لهم « أنتم أكلتم من الخبز وشبعتم »، ولم يستطيعوا أن يقبلوا تعليمه الصعب عن خبز الحياة . كذلك أيضاً ثارت الأزمة في الكنيسة الأولى حول الخبز . فلم يكن بدٌّ من ايجاد حل معقول لنماء الملكوت . وقد كان، وما يزال، عمل البر والاحسان في الكنيسة من العناصر اللازمة لرقيها ونمائها لزوم التعاليم الدينية الاخرى. ولم يجرؤ أحد في ذلك العصر على الحط من شأن هذه الخدمة. والأحوال الجديدة الطارئة تتطلب بطبيعة الحال تدابير جديدة ومشروعات جديدة وخداماً جدداً . ولم يكن في الكنيسة كلها أليق لهذه الخدمة من استفانوس. فلم تكن وظيفته « كشماس »، ولو أن اللفظة اليونانية الدالة على هذا المعنى في الأصل اليوناني قد استعملت عند تعيين أولئك السبعة « لخدمة الموائد » .

قام الشعب نفسه بانتخاب أولئك السبعة الذين أُفرزوا لخدمة موائد الفقراء . وكان متياس التلميذ قد أُختير لوظيفة « الرسول » بطريق إلقاء القرعة . أما هنا فلم يترك الأمر للصدف. ولم يسجل لنا السفر المقدس الطريقة التي جرى بها هذا الانتخاب . ولكن الظاهر ان كل التلاميذ قد اشتركوا فيه . لأن الكنيسة الاولى كانت نظاماً إلهياً وديمقراطياً معاً . فان

روح الله قد سيطر عليها . ولكنه سيطر على كل شيء ، حتى كان لكل واحد صوت في اختيار ذوي الصيت الحسن .

ولو أن العهد الجديد يروي لنا تفاصيل الازمة وعواملها التي أدت الى ظهور استفانوس في الكنيسة ، فاننا في الواقع لا نعلم شيئاً عن عمله كمشرف ومدبر لاعانات الفقراء . قيل لنا عن انتخابه، ولكن لم يذكر لنا شيء عن كفايته في توزيع الخبز على الارامل المعوزات . ومع انه قد انتخب ليخدم الموائد، فان اسمه بقي خالداً كالشهيد المسيحي الاول

— ٢ —

ولم يُفرز استفانوس لعمل البر والاحسان فقط . انما قد دعي من الله أيضاً ليكون شاهداً . ومع انه قد رسم علمانياً من الشعب فانه لم يلبث ان صار منادياً بانجيل المسيح . وربما ظنه الناس قد ركن في زاوية وانصرف الى تدوين الارقام والحسابات وجمع الصدقات ، ولكن روح الله قد دعاه أيضاً لينادي ببشارة السماء الفرحة . ورب سائل يقول انه كان خير لاستفانوس، لو عكف على عمله الاداري واكتفى بحياته المسيحية المثلى والشهادة باعماله ، وهي أصدق أنباء من الاقوال ولكن ينبغي ألا يغرب عن البال أن الاقوال هي الوسيلة لتبادل الآراء ، كما ان النقود هي الوسيلة لتبادل السلع والمتاجر .

قال الرسل الاثنا عشر : «أما نحن فنواظب على الصلاة وخدمة الكلمة» . ولكن هذا القول لم يعف الآخرين من واجب الشهادة . ووجود خدام خصوصيين للكنيسة منصرفين بكليتهم إلى التعليم والتهذيب ونشرة الدعوة والعبادة — لا يعفي الأعضاء الباقين من الشهادة والمناداة بالحق الذي انطوت

عليه جوانحهم. ولم يحسب الرسل هذه المناداة بالدعوة وقفاً عليهم ولا احتكاراً لهم. لانه في أشهر معدودة برز اثنان — وهما استفانوس وفيلبس — من أولئك العلمانيين السبعة، وبزا أكثر الرسل في الغيرة للانجيل. واستفانوس الذي كان نصيبه الاشراف على عمل الاحسان ومشاركة الحزانى والبائسين في آلامهم وبأسائهم — لم يلبث طويلاً حتى وجد نفسه مضطراً لان يشرح الانجيل في مجامع الليبرتينيين والقيراونيين والاسكندريين. فعاد إلى اليهود اليونانيين، أصدقائه وشركائه الاولين. وهناك لقي عناداً صارماً ومقاومة عنيفة.

وفي الرواية القصيرة التي تحت إمرتنا عن سيرة حياة استفانوس، نرى ثلاثة شواهد بارزة لعمل الروح القدس. فقد تلقى دعوة خاصة من الله لنشر الدعوة. وقد أثبت له الروح ذلك، لا بركركة ألسنة غريبة، ولا بهمسات أقوال صامتة، ولا في غيبوبة خفية غامضة. لان الامتلاء بالروح ليس شارة خاصة لضرب من ضروب الارستقراطية الدينية. وكثيراً ما نسيء فهم الأشياء الروحية فنحسبها أموراً ذاتية فقط أو أشياء من خصائص عالم آخر. ولكن هل الحياة الدينية الحقة متعة كمالية يحلم بها الحالم في خيالاته وأوهامه؟ وهل هي مجرد هيام عاطفي ينتشي به الذاهلون في هزات من العاطفة المهتاجة؟ كان استفانوس مملوءاً بالايمان والروح القدس، ولكن لم يؤد به هذا الى اهمال واجباته اليومية المألوفة ظناً منه أن لا علاقة تربطه بشئون الحياة المادية. وقد كان مستحيلاً على الانسان في الكنيسة الاولى أن يتجاهل حاجات المعيشة الاجتماعية، أو يغض الطرف عن العلاقات القائمة بين عقيدة الايمان وقواعد الاخلاق والسلوك البشري، حاسباً نفسه روحياً وكفى. لان ثمار الروح

في نظر استفانوس وفي نظر بولس أيضاً هي : « محبة ، فرح ، سلام ، طول أناة ، لطف ، صلاح ، ايمان ، وداعة ، تعفف » .

و بالروح دُعي استفانوس لان يجاهر بالحق في غير مداراة . ويبدو لنا كلامه في الفصل السابع من سفر الاعمال كأنه خلاصة فقط لاقوال العهد القديم ، ولكنه يجيء بهذه الحقائق التاريخية ، لا ليدلل على اكتمال النبوات كما فعل بطرس ، بل ليظهر للملا ان المسيح وانجيله هما الهدف الذي يتجه اليه كل التاريخ العبري . ولقد ابتعد استفانوس بنظره الى ماوراء أورشليم ورأى رؤى ، شهد من بعيد رباً جامعاً تجثو له العوالم ، لا يسكن في الهيا كل المصنوعة بالايدي . وحديثه هنا انما هو بداية انتقال الكنيسة من موطنها الضيق في أورشليم إلى وطنها الشاسع الواسع الارجاء في كل أنحاء الارض .

ولسنا ننكر ان ديننا المسيحي قد اشتق نوعاً ما من اليهودية ، ولكنه كما قال هارنك : « لم تتأصل جذوره قط في تربة يهودية » . وكانت الامثولة التي تلقاها اليهود عن استفانوس من كلامه هذا — بمثابة البذرة للدين الجامع الذي يشمل كل الارض . ولم يكن يستطيع هو بنفسه أن يقدّر في خيالاته نتائج المستقبل . ففي العشرين سنة الاولى صار التلاميذ الاثنا عشر الاصليون شرذمة من البشر يعترفون بيسوع المسيح رباً . ولكن في قرن من الزمن بعد حوادث جتسيماني والجلجثة وجبل الزيتون ، لم تعد فلسطين مركز الكنيسة ، بل كانت أشبه بمستودع لنهر فياض عظيم تتدفق منه ينابيع الخير والقوة إلى أقاصي الارض .

ومن يتأمل قصة استفانوس يدهشه أيضاً تكريسه التام . وفي قراءة الفصلين السادس والسابع من سفر الاعمال، نصطدم بتناقض ظاهري. فانه عندما بدأ يتكلم « جميع الجالسين في المجمع .. رأوا وجهه كوجه ملاك » . ومع ذلك فحين فرغ من كلامه « صاحوا بصوت عظيم وسدوا آذانهم وهجموا عليه بنفس واحدة .. ورجموه ». ظنوه ملاكاً ومع ذلك قتلوه ! ولماذا ندهش ؟ ألم تصرخ غوغاء أورشليم عند دخول السيد هاتفة « أوصنا لابن داود ! » . وبعد ذلك بأيام قلائل تورمت أوداج هذه الحناجر عينها بصراخ عال: اصلبه ! اصلبه !

ويبدي استفانوس في استشهاده رغبة حارة في المباهاة بسيده . فقد قال يسوع عند موته : « يا أبتاه في يديك أستودع روحي » . وقال استفانوس : « أيها الرب يسوع اقبل روحي » . كذلك تذكر يسوع صالبيه فصلى لاجلهم قائلا : « يا أبتاه اغفر لهم لانهم لا يعلمون ماذا يفعلون » . وقال استفانوس بلهثات المحتضر « يارب لا تقم لهم هذه الخطية » . وههنا نشهد تناسقاً بين السيد وتلميذه . ومثّل لنا الشهيد الاول في حياته ما قاله بطرس بعدئذ : « إن المسيح أيضاً تألم لاجلنا تاركاً لنا مثالاً لكي تتبعوا خطواته » .

وكانت الغوغاء الصاخبة القاسية قد تعدّت في هياجها الجنوني حدود القانون الروماني . لان تنفيذ الاعدام كان موكولاً فقط إلى الولاة وجند الحكومة. واذا وُجد بين القوم من يتساءل حول مشروعية هذه الاجراءات

التعسفية الظالمة، فان كثيرين بلاشك قالوا : « أخيراً قد أخذنا صوت ذلك البطل الغيور في جماعة الناصري » .

ولكن عمل استفانوس لم ينته . ولم يهجع صوته باطفاء جذوة حياته . فلقد وجد فيه كل شهيد مسيحي فيما بعد ممن القوا في غياهب السجون، أو طوّح بهم في أتون النار، أو سقطت رقابهم تحت حد السيف — وجد الجميع في شجاعته النادرة وتكريسه الصادق وحياً وإلهاماً . وحين واجه بوليكاربوس الوحوش الكاسرة في ساحة المصارعات بأزمير، وحين قطع الجلاد رقبة « بربتوا » في قرطاجنة، وحين ذاق المئات والألوف في مصر مرارة الموت الزؤام على يد الظالمين دقليديانوس ومكسيميان — حين ذاك نظر جميع هؤلاء الى وجه استفانوس فاستلهموا منه شجاعة وثباتاً وصبراً .

أجل . لم تنته قصة استفانوس عند ذلك الجسد الهامد المضرج بدمائه تحت كومة الحجارة خارج أسوار مدينة أورشليم فقد كان واقفاً هناك ليشهد تلك المأساة مَن صار فيما بعد بولس رسول المسيح للامم والمنادي الاكبر بالمسيحية. واعتقد انه على الرغم من اخلاصه لنفسه ولمبادئه في اضطهاد المسيحيين، قد تأثر جداً بشهادة استفانوس وهو يحتضر . هذا أمر لا شك فيه . ويقول السفر المقدس انه بعد اهتداء بولس عاد الى أورشليم « وكان يجاهر باسم الرب يسوع . . . ويباحث اليونانيين فحاولوا أن يقتلوه » (اعمال ٩ : ٢٩) . فكأنه عندما عاد إلى المكان الذي شرع منه في الاضطهاد، أخذ على عاتقه إتمام مهمة استفانوس والانتصار لدعوته، فلم تمت نفس ذلك الشهيد الأول بل سارت الى الأمام في جهادها المبرور .

فيلبس المبشر



فيلبس

في رواية « أبسن » المعروفة « بالامبراطور يوليانوس » وضع على لسان « أبوليناروس » المسيحي أن يقول هذه العبارة :

« الحق ... إنه متى تعالت أصوات الأناشيد فوق أحزاننا ، فانه يستحيل على الشيطان أن يظفر بالغلبة » .

وفي كل الرقاع التي انسابت اليها قوة الانجيل في العصور المسيحية الأولى تجاوبت أصداء أنشودة الفرح فتعالت فوق الآلام والاضطهادات . وكان لرسالة المسيح طابع خاص في نفوس أتباعه هو طابع الفرح والبهجة . وقد امتازوا بهذا الطابع ، ليس بفعل طقوس محكمة راعوها ، ولا بسبب أوسمة أو شارات حملوها ، ولـكن لأنهم أذاعوا بشرى الفرح .

ويقصُّ لنا الفصل الثامن من سفر الاعمال قصة فيلبس وهو أحد الستة الذين زاملوا استفانوس في خدمة المحتاجين والمعوزين والقصة في حد ذاتها مقدمة رائعة لقصة أكبر منها هي قصة شاول الطرسوسي . وقد جاء في الآيات الافتتاحية من هذا الفصل : « وأما شاول فـكان يسطو على الكنيسة .. ويجرُّ رجالا ونساء إلى السجن » ويبدؤ الفصل التاسع بقوله : « أما شاول فـكان لم يزل ينفث تهدداً وقتلا على تلاميذ الرب » . و بينما لا يكاد القاريء

يتمالك أنفاسه من هول غارات بولس على الكنيسة ، اذا به يسمع قصـــة فيلبس .

ويسود هذا الفصل كله رنة واحدة هي رنة الفرح والابتهاج . فانَّ فيلبس نزل إلى السامرة . وإذ كرز لاهليها بالمسيح فاض على المدينة فيض من الفرح (آية ٥ — ٨) . وبعدئذ التقى بالخصي الحبشي . وهذا بعد أن آمن انصرف لحال سبيله فرحاً متهللا . (آية ٣٧—٣٩) فـكان أمراً لا محيص عنه أن يعقب سماع رسالة المسيح والايمان بها فرح وابتهاج .

وكان فيلبس علمانياً أي فرداً من الشعب . وإذ تعـيَّن لخدمة الموائد عُرف بين القوم بلقب « فيلبس المبشر » وكزميله استفانوس ذاع صيته كنذير وبشير . وقد كانت أيام استفانوس قصيرة العهد كصوت من أصوات النذير وإذاعة البشرى . فان عظته الاولى أدت إلى نتيجتها المروعة المفزعة ، إلى الاضطهاد والموت . فـكان لزاماً على المؤمنين أن يهربوا ويتفرقوا ، لا لـكي يندبوا حظهم العاثر ، بل لـكي يذيعوا بشارة جديدة من الفرح الفائر .

والظاهر أن فيلبس لم يفقد بسبب الاضطهاد مكانته فقط في الـكنيسة ، بل فقد أيضاً أخلص وأعزّ أصدقائه . وكان محالا من الوجهة البشرية المحض أن يحول حادث الاستشهاد المروع إلى ظرف بهيج مفرح . ومع ذلك فان الفرح لازمه انىّ ذهب في دعوته . وكان هناك لدي فيلبس مأساة أروع

وأفظع من حادث فقد صديقه العزيز، فان القضية التي قد كرس نفسه وزملاءه لاجلها أوشكت الآن على الضياع بحسب الظواهر الخارجية . واضطر القوم أن يهربوا ويخلصوا بحياتهم . وكان يسوع قد أرسل تلاميذه اثنين اثنين . وفي أيام الهدوء استطاع بطرس ويوحنا أن ينزلا معاً إلى السامرة لافتقاد الكنيسة الجديدة التي انشأها فيلبس هناك . أما الآن فكان عليه أن يذهب منفرداً .

أما رسالة الفرح التي أذاعها فيلبس فكانت إلى جمهور في المدينة وإلى فرد في طريق البيداء . وكان الجمهور الذي سمع هذه الرسالة من السامريين الخوارج الذين لم يعاملوا اليهود . وذلك لان الخلاص بالمسيح لا يقيم حدوداً بين بني الانسان . ولما وصل فيلبس السامرة ألفى هناك شخصاً كان قد استلب مشاعر القوم هو سيمون الساحر . وكان موقفه بطبيعة الحال مضاداً لموقف فيلبس . ولم يطل به الأمر حتى بهر كل طبقات الشعب بألاعيبه وحيله فقالوا عنه : « هذا هو قوة الله العظيمة » . أما فيلبس فلم يقم الدنيا ويقعدها عن عظمته كما ادعى ذلك الساحر . ولكنه أذاع أخباراً مفرحة عن ملكوت الله وابرأ كثيرين ، فانصاعت اليه الجماهير وآمنت به . وحتى ذلك الساحر نفسه آمن واعتمد . وبهت ذلك الذي كان من عادته أن يخلب لبّ الجماهير بسحره وألاعيبه !

وبينما كان فيلبس في وسط هذا الانتعاش الديني في السامرة، أرشده

صوت لأن يسلك الطريق المؤدي الى غزة . فهل اعترض بقوله : « يا رب هنا جمع كبير وكثيرون لم يؤمنوا بعد » . لو كان قد فعل شيئاً من هذا لكان ألح عليه الصوت قائلا : « أترك هذه الجماهير . واذهب الى البرية . اترك الجماهير الغفيرة واسع وراء إنسان واحد منعزل » .

وقد كان في أورشليم نفر من التلاميذ . فلِمَ لم يُرسل أحدهم الى غزة؟ وبعضهم قد سمع يسوع يقول: « اذهبوا وتلمذوا جميع الامم »، وهم لم يفعلوا بعد شيئاً من هذا . والارجح أنه كان في أورشليم رسل لم يتعدوا أسوار المدينة المقدسة . والاضطهاد الذي ثار عقب موت استفانوس كان موجها بنوع خاص ضد المسيحيين من اليهود اليونانيين « فتشتت الجميع ما عدا الرسل » . كان الباقون في أورشليم رسلا ، ومع ذلك لما أراد الله إيصال الحق الى ذلك الحبشي الغريب ، بحث في السامرة لعله يعثر على مَن يليق لهذه المهمة .

وكان وزير مالية الحبشة قد قضى في أورشليم أياماً وربما أسابيع يبحث عن النور ، ولم يكن قد بصر به عندما لقيه فيلبس . وهل كان ذلك الكبير الحبشي دخيلا ؟ أم هل كان رجلا أمياً خائف الله مال الى عبادة الله الواحد في اليهودية ؟ لسنا ندري . وكغريب وكخصيّ لم يكن مصرحاً له بالدخول الى مقدس الهيكل . واكتفاء بحظوة الوقوف في الردهة الخارجية ، حيث يقف الاميون للعبادة من بعيد ، قطع مئات الاميال في الفيافي والقفار .

وكان ذلك الوزير الحبشي عائداً الى بلاط ملكة كنداكه يحمل معه

نفساً لم تفز بالرضى والطمأنينة، لان أحداً من الكهنة أو رجال الشرع لم يتقدم ليشرح له ما خفي عليه من أسفار الكتاب . وكان حكماء من المشرق قد وفدوا الى بيت لحم من قبل فشهدوا الطفل يسوع . وأما ذلك الوزير الحبشي فربما يكون قد جرى بينه وبين الرسل تدافع بالمناكب وسط الزحام في باحة الهيكل، ومع ذلك لم يقل له أحد شيئاً عن يسوع المسيح .

وإذ قد خرج من أسوار المدينة خيّل لذلك الحاكم العظيم أنه قد أفلتت منه كل فرصة في المستقبل ليعرف شيئاً عن الشخص الذي اكتملت فيه النبوات المتعلقة بعبد الرب المتألم. وكان يقرأ في طريقه وهو في مركبته الفصل من إشعياء النبي المتعلق بهذا الموضوع . وبينما هو سائر في البرية بادره رجل غريب بهذا السؤال : « ألعلك تفهم ما أنت تقرأ ؟ ». فكان جواب الحبشي « كيف يمكنني إن لم يرشدني أحد ؟ » وفي لحظة كان فيلبس إلى جانبه في المركبة يلقنه هذا الدرس الخطير .

وقبل أن يرخي الليل سدوله كان المعلم والتلميذ ، كان الوزير والمسافر الرّحالة — عند حافة الماء لاجراء طقس المعمودية، فاعتمد من لم يعرف شيئاً منذ ساعات عن يسوع الناصري . وخطف روح الرب فيلبس فلم يبصره الرجل . أما الروح فيبقى ، ولم يتركه الرب « . . . وذهب في طريقه فرحاً » .

كان فيلبس ينثر أزاهير الفرح انّى ذهب لأنه عثر هو نفسه على نبع

الفرح الحقيقي . وفي السفر المقدس واقعتان تؤيدان هذا الرأي . فهو قد عرف معنى السعادة الحقة لأن حياته خضعت لارشاد الله . ففي ثلاث مرات – كما جاء بالآيات الأخيرة من الفصل الثامن – يدفعه إرشاد الله إلى العمل ، يأخذه من جماهير السامرة إلى طريق البرية ، ثم يدفعه لأن يجلس إلى جانب الوزير الحبشي في مركبته ، ثم يؤخذ عنه ليخلو الرجل إلى فرحه وسلامه . وتُبذل الآن جهودلاحياء روح مسيحية القرن الأول. ولا بد لهذا الاحياء من إرشاد الروح القدس لتكون حياة البشر في تناسق تام مع إرادة الله بالصلاة ودرس الكتاب المقدس وانتظار الله حتى تعرف مشيئته .

والشيء الثاني الذي جعل حياة هذا البشير فائضة بالفرح على الآخرين هو تركز حياته في المسيح . فقد كان المسيح نفسه رسالته وكان موضوع دعوته – فلما جاء إلى السامرة نادى لأهلها بالمسيح (أع ٥ : ٨) . ولما شرح سفر إشعياء للخصي الحبشي أذاع انجيل يسوع (أع ٨ : ٣٥) .

وفي دراسة الكتاب المقدس – خصوصاً العهد القديم – نضل السبيل ، ونتيه عن الموضوع الأصيل ، فيميل قوم إلى تقديس الكتاب المقدس تقديساً خرافياً ، ويفرط آخرون في الاهتمام بمشاكل الكتاب التاريخية والأدبية . وقد جاء في مؤلف للدكتور « باتون » الذي كان يوماً ما رئيساً لجامعة برنستون بأمريكا فذلكة متعلقة بهذا الأمر قال فيها :

« انتصحوا بنصحي . لا تضطرب نفوسكم بمشاكل العهد القديم

وصعابه . ولا تحيدوا عن نقطة البحث الأصيلة . ماذا تظنون في المسيح ؟ ومتى استطعت الاجابة عن هذا السؤال الاجابة الحقة، لا يهم كثيراً بعد هذا ما تعرفه عن يونان . هل صُلب يونان لأجلكم ؟ أم قد اعتمدت باسم يونان ؟ لست أخفض من شأن هذه المسائل وما شاكلها . ولكن لست أظن أن تسويتها يجب أن تسبق الايمان بالمسيح » .

ولا يبرز المؤلف نظرية جديدة عن الكتاب المقدس إنما يضع أصبعه على النقطة المركزية في الدين كما عرفها فيلبس ، وكما عرفتها الكنيسة الأولى ، وكما عرفها خيار المسيحيين ، في يسوع المسيح نفسه مخلص العالم في كل أزمان التاريخ .

ويقول علماء العهد الجديد ان ظهور يسوع « في ملء الزمن » لا يشير فقط إلى اكتمال نبوات العهد القديم . إنما كان قد خبا في العالم روح الدين الفطري وأوشك على الزوال . وكان البشر على حال من القلق والشقاء في ترقب مخلص منقذ . وكانت الحاجة ماسة إلى العزاء والاستغفار . وقبل بزوغ فجر المسيحية كانت ثقافة « اسكولابياس » قد انتقلت من اليونان إلى رومية . وصار مقام ذلك الاله مقدساً مألوفاً فوق ضفاف نهر التيبر . ولكن المسيحية وقوتها وسعادتها قد جرفت أمامها تلك الثقافة وغيرها من الثقافات الأخرى .

وفي خدمة فيلبس لم يكن ثمت نقاش حول النصيب الذي فاز بهم غير

اليهود من الفداء المعلن في يسوع المسيح . ولكن ثار في العصور المتعاقبة الجدل والحوار والخلاف حول المطالب التي يجب على الأمم اتمامها قبل الانضمام إلى الجماعة المسحية . وقد بشر فيلبس السامريين والخصي الحبشي – وهم من الامم – دون النظر إلى ما قد يكون هناك من العوائق التي يقيمها جماعة المتفيقهين في سبيل انضمام الوثنيين من الامم تحت لواء المسيا الذي رفضه شعبه اليهود . وقد كان أولئك محرومين من فرح المسيحية ، وكفى بذلك حافزاً يدفع فيلبس إلى خدمته لاجلهم . تلك الخدمة التي مهدت السبيل للكنيسة الجامعة لشعوب الارض قاطبة .

وقد يزعم الزاعمون أحياناً أن المسيحية هي دين الاحزان ، لانها تجمع الى حظيرتها العرج والكساحى والمطرودين . ويقول آخرون في هذا الصدد ان يسوع نفسه كان « رجل أوجاع ومختبر الحزن » . ونهض قوم غيرهم فظنوا أن الاقتداء بالمسيح في آلامه هو الشعار الحقيقي للتلمذة له . ولكن أمثال هؤلاء ينظرون الى المسيح من خلال عدسة ملتوية خاطئة . وفي بعض العصور في تاريخ الكنيسة برز نوع من المنطق الجامد وزعم أن « الغلبة على الخطية تتطلب الآلام والحزن ، فالتلمذة مستحبة من هذه الناحية ، والمزيد من هذه الآلام خير من القليل منها . واذا لم ينلك قسط وافر منها ، فاطلب المزيد بنفسك واسع اليه ، تكن كاملا » . ولسنا ننكر أن الحياة المسيحية معناها حمل الصليب . ولكن لا يفوتنا أن الصليب حمله مَن قال ليلة موته « ثقوا

(افرحوا) أنا قد غلبت العالم » . وتُعرف أحياناً الطريق التي سار فيها المسيح الى الجلجثة « بطريق الآلام » Via Dolorosa وبهذه التسمية تتجاهل فكر ذاك الذي لاجل الفرح الموضوع أمامه احتمل كل شيء .

وكثيرون من الناس يقفون أمام مطالب الدين متسائلين وقائلين : « الى أي حد تقف مسيحيتي في سبيل مسراتي ؟ وهل اتباع المسيح منطو على التنازل عن سعادتي الحاضرة وبذل تضحيات هائلة ؟ » . ولو كان فيلبس قد راعى أولاً مصلحته وراحته الشخصية، لما كان قد ترك أورشليم على الارجح . ولمّا هرب التلاميذ من الاضطهاد، لم يكن ذلك بالضرورة صوناً لحياتهم لان يسوع كان قد أنبأهم أنهم يهربون الى مدينة أخرى . وبهذا تمكن آخرون من سماع شهادتهم عنه .

وكما فعل الابيقوريون قديماً، يسعى كثيرون في هذا العصر دائبين لعلهم يظفرون بالفرح والسعادة . ويظنون أنه لو توفر لديهم كثرة من الملاذ والملاهي فازوا بضالتهم المنشودة . وكأني بهم يدورون ويلفون حول المشكلة في غير جدوى ، ولم يصيغوا باسماعهم الى قول يسوع « اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم » .

وبين شخصيات العهد الجديد كلها انفرد فيلبس باللقب الذي أُطلق عليه « المبشر » أي رسول الأخبار المفرحة . فليس غرابة أن يخلف وراءه آثار الفرح في النفوس التي تماست به . وهو يختفي فجأة من قصة انتشار المسيحية ونراه في ختام الفصل الثامن من سفر الأعمال مقيماً في قيصرية . وهنا تنتهي قصته لولا إشارة موجزة اليه في الفصل الحادي والعشرين من

هذا السفر فيها نلمح أثراً من آثار ضيافته الكريمة في داره هناك . ونلتقي ببناته الأربع وهنّ عصبة من المضيفات الكريمات اللواتي كرسن حياتهن لخدمة السيد . وإلى تلك الدار في قيصرية قدم شاول الطرسوسي الذي كان قد طرد فيلبس من أورشليم . والآن يفد ضيفاً كريماً - بولس رسول الأمم .
ولست أشك أن الدموع ترقرقت في أعين المضيف وضيفه وهما يتحدثان عن العداوة القديمة والاضطهادات القديمة . ولكن لست أشك أيضاً أن فرح سيدهم وربهم قد أنساهما كل مرارة وكل حقد . لأن فيه تذوقا الفرح الذي يغلب العالم .

كرنيليوس الجندي المسيحي



كرنيليوس

الحقائق البارزة التي يتبينها قراء سفر الاعمال في هذا العصر أن الشخصين اللذين ذكر اسماهما كباكورة المؤمنين من البلدان الأجنبية ، كان أحدهما حبشيا والآخر ايطاليا . والذي حدث عقب موت استفانوس الشهيد الأول أن تفرق التلاميذ من أورشليم وفي خلال هذه الفترة (التي سُردت قصتها في سفر الاعمال من الفصل الثامن إلى الثاني عشر) ، ذكرت أسماء أشخاص ثلاثة صاروا للمسيح أتباعاً وأنصاراً ، بينهم بولس اليهودي الذي رُويت قصة اهتدائه في الفصل التاسع من سفر الاعمال ، وقد صار فيما بعد رسول الامم الاكبر . وهو يمثل العنصر السامى ، بينما يمثل الخصي الحبشيّ الذي اعتمد على يد فيلبس — كما جاء في الفصل الثامن — سلالة حام ويروى الفصل العاشر قصة كرنيليوس قائد المائة الروماني في الفرقة الايطالية ، وهذا يمثل سلالة يافث . ومن ثم تروى لنا هذه الفصول الثلاثة قصة تحول الدين ، الذي كان يُنظر اليه من قبل كمجرد طائفة يهودية ، إلى دين عالمي جامع يقبل اليه ثلاثة من قارات افريقية وآسيا وأوربا ، وترسم لنا هذه القصص مجتمعة صورة لدعوى الانجيل الشاملة .

كان بولس « عبرانياً من العبرانيين، ومن جهة الناموس « فريسياً » ، وكان الخصيُّ وزير مالية كنداكه ملكة الحبشة ، ولعلّه كان من سلالة يهودية ، على أنه كان على الأقل من الدخلاء في الدين اليهودي . أما كرنيليوس قائد المائة الايطالي، فكان، كما يرسمه سفر الاعمال، أول ممثل للامم يدخل إلى المسيحية . وقد أحدث قبوله في زمرة المسيحيين أزمة شديدة تهدد كيان الكنيسة ، ونشأ عن اهتداء أول وثني من الأمم جدل عنيف بين زعماء الكنيسة في أورشليم (أعمال ١١ : ١ ــ ١٨). ومع أن بطرس قد أفلح حين شهد خصومه قائلين : « إذاً أعطى الله الأمم أيضاً التوبة للحيوة » ، فان موضوع مساواة هؤلاء الأمم باليهود في كافة الحقوق ، ظل محتدماً سنوات طوالاً ، وبقى على بولس فيما بعد أن يناضل وينتصر في سبيل الحرية المسيحية ، ويضمنها للامم واليهود على السواء .

وليس في قصة الانجيل ما يشتم منها أن كرنيليوس هذا كان دخيلاً على اليهودية . وقد تأثر كثيرون من الأمم في القرن الاول ، من مختلف الرتب والدرجات بدين اليهود . ومن أول الامر انفصل بعض الوثنيين انفصالا تاماً عن ماضيهم وقبلوا الختان والتطهير أو المعمودية وقدموا التقدمات للهيكل . وقد صار هؤلاء أعضاء كاملين في الجماعة اليهودية ، ودُعوا دخلاء البر ، واضطروا أن يخضعوا لكل الطقوس والمراسيم ، وأن يتمتعوا بكل المزايا التي كان من حق اليهود أن يتمتعوا بها .

أما كرنيليوس فلم يكن ينتسب إلى هذه الفئة من الدخلاء . على أنه يبدو أنه قد مال إلى تعاليم العهد القديم ، وقبل الإله الواحد إلهاً له . وقد وجد كثيرون من الامم في ذلك القرن مَن يعطف عليهم في مجامع اليهود ويبادلهم الود والولاء ، فتقووا بصلوات هؤلاء وبدراسة الكتب المقدسة، وبحثهم ودعوتهم إلى الحياة الادبية السامية . وهؤلاء دُعوا دخلاء الباب . فهم في نظر اليهود خارج الموعد ، لم يكن مصرحاً لهم الدخول إلى ما وراء حاجز الامم في الهيكل، ولو أنهم يدينون بالتوحيد . وقد مُنع بعض الطالبين من أن يصيروا يهوداً بسبب اللوثة التي لازمت لفظة « الامم » * في ذلك العهد أو لأسباب اجتماعية أو أخلاقية أو عنصرية .

ولكن لانهم آمنوا بالله ، أُطلق عليهم لقب « خائفي الله » . وقد ورد ذلك في سفر الاعمال (ص ١٠ : ٢) حيث قيل عن كرنيليوس انه « خائف الله مع جميع بيته » . وفيما بعد لقي بولس في رحلاته هؤلاء الوثنيين الخائفين الله في كثير من المجامع اليهودية التي زارها. وبعد أن شرحنا حالة كرنيليوس في أعين اليهود ، لنلقِ أبصارنا إلى بعض الحقائق الاخرى حوله :

١ — كان قبل كل شيء جندياً ، قائد مائة ، أي ضابطاً فوق مائة

(*) وهي لقب أطلقه اليهود على الوثنيين احتقاراً لهم ، كما أطلق اليونان والرومان لقب « البرابرة » على أبناء الجنسيات الأخرى . وكما أطلقت العرب قديماً لفظة « أعاجم » على أبناء غير العروبة .

عسكري. وقد ذكر غيره من رجال الحرب الرومان في العهد الجديد، وبغير استثناء قد أبدوا جميعاً أمائر النبل وكرم الاخلاق. وفي غير مرة كانوا على طرفي نقيض مع الفريسيين والكتبة والصدوقيين والكهنة الذي رفضوا قبول المسيا. فالجنود الرومان أقبلوا إلى يوحنا المعمدان يلتمسون نصحه، بينما نبذه زعماء اليهود. وقد امتدح المسيح مرة ايمان قائد مائة بعبارة صارخة في دلالتها: « الحق أقول لكم لم أجد ولا في اسرائيل ايماناً بمقدار هذا ».

وعند الصليب صرّح قائد مائة روماني باعتقاده قائلا: « حقا كان هذا الانسان ابن الله »، ولم يكن هذا الاعتراف في ساعة من ساعات النصر، بل في وقت هزيمة ظاهرة.

وقد كان قواد المائة والجنود الرومان في نظر الوطنيين اليهود رمزاً للحكم الأجنبي والسلطة الاجنبية، على أن الذين ذكرهم الانجيل لم يكونوا الرجال الفخورين المختالين الظالمين القساة الذين صورتهم المؤلفات التي كتبها خصومهم.

كان كرنيليوس رجلا متديناً حقاً، فواجباته الكثيرة التي اقتضت منه تفكيراً وعناية لم تحل بينه وبين القيام بعبادته اليومية، قد آمن بالله وبمواعيده، وقد أفصح عن ايمانه هذا باحسانه إلى الفقراء وبالصلاة والتعبد.

وما أعظم الفارق بين حياة كرنيليوس وبين الممارسات الوثنية الوضيعة

التي ذكرها بولس في الفصل الاول من رسالته إلى رومية . فأولئك القوم ، ولو أنهم عاشوا في قلب الامبراطورية العظيمة ، فانهم لم ينقادوا بالنور الذي كان لهم ، بل عبدوا المخلوق دون الخالق ، وأوغلوا في صنوف من الآثام والموبقات الشنيعة البشعة .

والرومان بصفة عامة لم يعبأوا كثيراً بالروحيات ، وهم في هذا دون اليونان أو اليهود . وقد اشتهروا بالجمود وعدم الاكتراث للألم ، وكان من خواص كثيرين منهم الطمع وحب البذخ في استخدام الثروة ، وامتازوا بقوة التنظيم وصرامة التدريب في الدولة وفي الجيش ، وكان النظام نظرتهم الاساسية في الحياة ، واشتهروا بقوانينهم وشرائعهم بينما « حوّل اليونان كل الاشياء التي شغفوا بها إلى معاهد ومؤسسات » .

وعلى الرغم من المُثل العليا والخواص القومية التي امتازت بها الشعوب والاجناس في العصور القديمة ، يجب ألا نغفل أنه كان في عصر كرنيليوس طرق كثيرة مؤدية إلى الرجاء المسيحي ، وكثيرون أبوا عبادة الآلهة المعروفة يومئذ ، واستمالت فلسفة التوحيد الافلاطونية التي تلاقت فيها فكرة الخير والله ، كثيرين من الطبقات المفكرة .

وعلى أي حال فقد كان من الشواهد البارزة أن نجد بين جنود الثكنة الرومانية في قيصرية قائد المائة الذي صار باكورة المتنصرين من الامم .

وقد اختار الله أن يضع هذا الجندي فوق كل الجنود والضباط في

قيصرية بسبب حياته التقية واعترافه الرائع . وحين يستخدم الانسان بجد وبنشاط النعمة المعطاة له من الله ، ينال نصيباً مضاعفاً من بركة الله لان « مَن له يعطى ويزاد » .

٢ — ومع تقواه وصلاحه ، فان كرنيليوس تاق إلى شيء آخر أكثر مما ناله بسبب إيمانه بالاله الواحد ، وكانت صلواته وعبادته ترمي إلى إحراز حياة أكمل وأخصب وقد كانت الانسانية في كل مكان ، في العصر الاول المسيحي ، تتصايح طالبة الغوث والانقاذ ، وذلك لان اليأس كان قد ملأ قلوب كثيرين ، ويشير بلوتارك إلى العويل والصياح والبكاء حين كان يعلن في بالودس « موت إله الرعاة الاعظم » ، فكان يخيّل لكثيرين أن شمس العالم قد اختفت وأن ليلاً بهيماً قد أدرك الأرض .

ومع ذلك كان في هذه الفترة الحالكة أناس ممن خافوا الله ، ليس بين اليهود وحدهم ، بل بين الأمم من أجناس كثيرة ممن ترقبوا اعلاناً جديداً لمحبة الله . ولو لم يكن المسيح قد جاء إلى العالم في تلك الأيام ، ولو لم يكن كرنيليوس قد ظفر برسالة الانجيل ، لكان قد دين حسب النور الذي كان له كباحث غيور مثابر وراء الخير الأسمى .

ومن المظاهر التي ألقت شعاعها على أخلاق كرنيليوس ذلك الوفد الذي بعث به إلى بطرس ، المؤلف من خادمين وجندي تقي كانوا يلازمونه . وإنا لنسمع الامبراطور الشرير نيرون يشتكي لانه لم يكن يجد خادماً أميناً . وليس من عجب أن يتجنب الخدم الطيبون خدمته خدمة صالحة ، فان من

الأقوال المأثورة انه ما من انسان يكون بطلاً في نظر خادمه الخصوصي ، ولكن القيام على خدمة كرنيليوس قد علمت خدمه أن يحترموه أشد الاحترام ويوقروه أشد التوقير ، وهؤلاء الذين لازموه أكثر من غيرهم قد استمدوا من روحه واقتفوا مثاله .

٣ – وقصة كرنيليوس قائد المائة تلذ لنا بصفة خاصة في هذا العصر لأن العالم في حالة توتر ، وكثيرون من البشر تحت السلاح . وفي عالم مشبع برغبات الغزو أو النصر أو الانتقام ، يتجدد ايماننا ويقوى ، حين نذكر ان أول الذين قبلوا المسيح على الأرجح من الوثنيين كان جندياً .

ويسوع المسيح رئيس السلام ، ورغبة كل المسيحيين حقاً تتجه إلى ملك السلام على الأرض ، ولكن هذه الحقائق الاساسية في ديننا لا يمكن أن تعمي أبصارنا عن وجود قوى مدمرة مخربة في العالم اليوم تهدد كل حرياتنا السياسية والدينية . ومع شدة اعتقادنا أن السلام هو المثل الاعلى المسيحي ، فاننا نعتقد أن القوة ، واحياناً القوة المدمرة ، يجب أن تستخدم أحياناً لوقف القوة المخربة . وفي نظامنا المدني نحتفظ بادارة البوليس لتنفيذ القوانين واللوائح ، والطبيب يستخدم مشرطه لاستئصال السرطان ، وقد تهدم جملة من المنازل في مدينة تحترق لوقف شبوب النار ومنع انتشار لهيبها .

والدين المسيحي القائم على المحبة يأبى أن يؤذي المجانين المتوهين ، أو يدمر الممتلكات أو يوقع الالم ، ولكن في أحيان كثيرة تكون الطريقة الوحيدة لتجريد قوة مدمرة من شوكتها مقابلتها بقوة أخرى من نوعها ،

وأسباب التهدئة ليست صالحة في كل الاوقات. ولنذكر في هذا العصر الذي نعيش فيه أن عدالة قضيتنا لن تبرر الاخذ بالثأر أو الانتقام ، ولنذكر أبداً كلمات الرئيس لنكولن المأثورة التي نطق بها ابان الحرب الاهلية في الولايات المتحدة : « بقلوب لا تحمل حقداً لاحد ، ومحبة للجميع ، وفي ثبات على الحق حسب ارشاد الله انا ، لنثابر على تكميل العمل الذي نقوم به الآن ، لنعصب جراح الامة ، ولنعتن بالذين حملوا عبء القتال ، و بأراملهم وايتامهم — لنفعل ما نستطيع لتوطيد أركان سلام عادل مقيم بين أنفسنا ومع شعوب الارض قاطبة » .

ونظن أن هذه هي الافكار والمبادىء التي سيرت حياة كرنيليوس الجندي المسيحي .

التلاميذ المجهولون



التلاميذ المجهولون

من أبرز الآثار القائمة شهادة حيّة على البطولة في الحرب العظمى تلك القبور التي انشأها الحلفــــاء لتضم رفات الجندي المجهول . ففي فنــاء وستمنستر بلندره ، وتحت قوسي النصر في باريس ، وفي مقــبرة ارلنجتن بأمريكا ، وفي أماكن أخرى ، أقامت شعوب الحلفاء نصباً تذكارية احتراماً وتكريماً لمحاربين مجهولين قدموا حياتهم قرباناً على مذبح الوطن . ولئلا يُنسى أولئك المحاربون من الانفار البسطاء الذين بذلوا دماءهم ثمناً للانتصار ، قد أقيمت تلك المدافن وأمست مزارات لتقديم فرائض الاجلال لمعنى حب الوطن ، أكثر منها آثاراً لعظماء القواد .

وعندنا أن المسيحية مدينة إلى حد كبير في تقدمها وسيرها الى جنودها المجهولين الذين لم يعرف العالم أسماءهم . وفي أحيان كثيرة أهمل المؤرخون شأن أولئك الذين أدوا خدمة أمينة للمسيح غير بولس الجلود الـكدود ، و بطرس الجسور المقدام ، و يوحنا الوديع المحب . والى جانب تلك الشخصيات التي لم يعلُ شأنها كثيراً في صدر المسيحية مثل برنابا واستفانوس وفيلبس ، يجب ألا نغفل الجمهور الهائل من المؤمنين الذين — ولو جهلنا أسماءهم —

قد جاهدوا في غير كلال لامتداد ملكوت الله بولائهم واخلاصهم وتفانيهم .

وقد اختلفت الآراء حول التاريخ المضبوط الذي شرع فيها المسيحيون في بثّ دعايتهم بواسطة البعثات الدينية للخارج . وكان من المحال طبعاً انشاء كنيسة عالمية جامعة بدون المسيح نفسه ، الذي أعلن في صراحة أنه مخلص الجنس البشري قاطبة، وتغاضى عن كافة الحواجز الجنسية والقومية في إعلانه محبة الله الشاملة . ولكن تُرى متى بدأ أتباع المسيح في إدراك مضمون تلك الرسالة العالمية الجامعة التي أودعها المسيح بين أيديهم ؟ وما الحادثة المعينة الدالة على أنهم فهموا مغزاها وأهميتها ؟ يقول بعضهم ان النقطة التاريخية الفاصلة هي رؤيا بطرس في يافا وزيارته للقائد الروماني في قيصرية . ويقول آخرون ان المسيحية بدأت في الانتشار بين شعوب الارض عند اهتداء بولس . ولسنا نشك أيضاً في أن مهمة برنابا وشاول التي أوكلها اليهما الروح القدس المناداة بين شعوب الامم ، والنداء الذي تلقاه بولس في رؤياه « اعبر الى مكدونيا وأعنّا » من الحوادث البارزة في تقدم الكنيسة . إلا اننا نعتقد أن بداية ظهور المسيحية كدين عالمي جامع ترجع الى نفر من التلاميذ المجهولين في انطاكية .

وقد قيل لنا في الفصل الحادي عشر من سفر أعمال الرسل « أما الذين تشتتوا من جرّاء الضيق الذي حصل بسبب استفانوس فاجتازوا الى . . .

انطاكية وهم لا يكلمون أحداً بالكلمة إلا اليهود فقط . ولكن كان منهم قوم وهم رجال قبرسيون وقيروانيون الذين لما دخلوا انطاكية كانوا يخاطبون اليونانيين مبشرين بالرب يسوع » . والذين تشتتوا كانوا أصدقاء استفانوس وكانوا بلا شك من اليهود اليونانيين . فما القصد من تدوين هذه العبارة التي يؤخذ منها أنهم شرعوا فعلاً في بث دعوتهم بين أبناء جلدتهم ؟ لا شك أن أولئك القوم قد اتخذوا يومئذ خطوة جديدة ، هي المناداة بالانجيل للشعوب الوثنية ، للاقوام التي لم تمتزج باليهودية أو كان امتزاجها بها ضئيلاً .

وتلك الخطوة الجديدة التي قام بها رجال من قبرس ومن قيروان كانت مستقلة ، بمعزل عن الكنيسة في أورشليم . وكان ذلك قبل أن يسمع أهل اليهودية أن اليونانيين يُقبلون في كنيسة المسيح . أما عن حادثة الخصيّ الحبشي وحادثة كرنيليوس القائد الوثني ، فان قبولهما لم يكن الا من الحوادث الفردية التي مال فيها الوثنيون الى وحدانية الله في اليهودية . ومنها انتقلوا الى الدين المسيحي . ولكن في انطاكية قبل سواها نهض المقدامون أولا ووضعوا مبدأ جديداً ، هو مبدأ بث الدعاية المسيحية في الخارج ، وقالوا انه من حق اليونانيين — والوثنيين عموماً — أن يسمعوا البشارة المفرحة ، ويصيروا أعضاء في المؤسسة العالمية الجامعة ؛ وينالوا نصيبهم في الخلاص الشامل الذي قدمه المسيح لأبناء الانسانية دون حاجة الى ختان أو اجراءات يهودية طقسية .

« رجال من قبرس وقيروان » . هـذا هو كل ما قيل لنا عن أولئك التلاميذ المجهولين ، الذين كانوا آلات للروح القدس في الشروع بهذه النهضة المباركة، والقيام بالخطوة الاولى في عمل الرسليات والبعثات الدينية ، تلك النهضة العظمى التي عمّت مشارق الارض ومغاربها في كل أدوار التاريخ المسيحي ، وأسبغت فيضاً من السلام والفرح على أبناء الانسانية في كل زوايا المسكونة . وهم قد تشتتوا من أورشليم عقب موت استفانوس . واذ كانوا أصدقاء له ، لا شك أنهم ألمّوا بالحضارة اليونانية وكان بعضهم من جزيرة قبرس ملتقى الثقافتين اليونانية والشرقية في العصور الأولى . فهناك كانت إلهة الزهرة Venus معبودة القوم وقد زعموا أنها استقرت في تلك الجزيرة أولا عندما خرجت من جوف البحر . ولئن كان هناك الشيء الكثير الجاذب من الفنون والآداب والفلسفة اليونانية، فان فيها كثيراً من الممارسات الوثنية الدينية المستكرهة الذميمة . فالشهوات والرذائل كانت ترتكب تحت ستار العبادة الوثنية . وقد عرف أولئك القبرسيون مما شهدوه في بلادهم فشل تلك الاسرار الدينية والثقافات الشرقية .

أما « القيروان » فكانت مستعمرة يونانية قديمة في شمال أفريقية قبل عصر الاسكندر بثلاث مائة سنة . وكان فيها جالية يهودية كبيرة منذ عهد البطالسة . وقد قدم اليها الرومان في أوائل القرن الأول لاخماد ثورة أشعل اليهود نارها . وفي عصر الامبراطور تراجان قامت فيها أيضاً ثورة أخرى حوالي سنة ١١٧ ب. م. ولذا كان التلاميذ اليهود في القيروان محاطين

باضطرابات سياسية . أما في أورشليم فقد نشأوا على الوفاء والولاء للمسيا رئيس السلام .

بدأ أولئك التلاميذ في بثّ دعايتهم للشعوب الوثنية في انطاكية أولاً . وكانت يومئذ العاصمة الشهيرة في آسيا وثالث مدائن الامبراطورية الرومانية . وفيها كان مقر المندوب السامي الامبراطوري في سورية . ومن قرأ رواية « بن حور » المشهورة يرى فيها وصفاً مهيباً لمدينة انطاكية في عصر المسيح . ومما زاد في رفعة شأنها وأهميتها ما كانت عليه من الرونق والبهاء والتقدم ، ومجاورتها لغابات «دفني» وحراجها، التي كانت محط أنظار الوثنية السورية، وميناء ولاية سلجوقيا حيث تزاحمت السفائن القادمة من كافة الموانئ الاخرى . وكان لها موقع طبيعي نادر المثال عند ملتقى سلسلة جبال طوروس ولبنان على نهر الاورنت الزاخر بالماء الوفير السلسبيل . و بسبب وقوعها عند ملتقى طرق المتاجر ، اكتظت أنطاكية بالسكان من مختلف الاجناس . ويقول عنها المؤرخ « ليبانيوس » إن من جلس في سوق أنطاكية عرف عادات شعوب الأرض كلها .

ومع أن الله قد يسبغ على مدينة أو مملكة البركات المادية التي لا تحصى، فان هذا وحده لا يقي شعبها شر المفاسد والرذائل . والواقع أن التاريخ ينبئنا في مواضع شتى ان اختلاط الاجناس المختلفة في المدائن الكبرى قد أدى دائماً الى تفشي الفساد والاباحية والجرائم ولقد بلغت انطاكية قبيل أواخر

القرن الأول مبلغاً من الفساد والاثم حمل « جوفنيل » الـكاتب القادح المتهكم على القول ان المدينة القائمة على ضفاف نهر التيبر قد أفسدها حثالة القوم القادمين من المدينة القائمة على ضفاف الأورنت (العاصي الآن) . وهو يقصد بالأولى رومية و بالثانية انطاكية .

ولـكن من الوجهة الفنية كانت انطاكية اكثر مركزية وأعظم قدراً للملـكوت الله في القرن الأول من رومية أو الاسكندرية . فان الحي اليهودي فيها كان غاصاً بالمجامع التي فاخر بعضها بحيازته أوعية مختارة كانت يوماً ما زينة الهيكل الـكبير في أورشليم . وكان من الصعب على اليهودي أن يشهد لدينه في تلك الأوساط الوثنية ، وكاد يكون متعذراً عليه أن يحتفظ بحياته الدينية وأفـكاره بلا دنس ولا عيب . وفي كل يوم عرضت له التجارب الخبيثة الماكرة . على أن بعضاً من اليهود لم يتوانوا في بث الدعاية لدينهم في تلك الأوساط المائجة بالوثنية الشهوانية ، بدليل وجود نيقولاوس في كنيسة أورشليم وهو دخيل من انطاكية (أع ٦ : ٥) وكان زميلاً لاستفانوس في العناية بشئون الفقراء .

الى هذه المدينة جاء أصدقاء استفانوس المجهولين « ينادون بالـكلمة » . واذ كانوا قد تشتتوا بسبب الاضطهاد لم يخر عزمهم في الشهادة بالانجيل الذي أضطهدوا لأجله . جالوا يتـكلمون باللغة اليونانية المألوفة في لهجة الحديث والـكلام . والصورة التي ترتسم في مخيلاتنا عن خدمتهم ليست

اجتماعات هائلة يؤمها حشد كبير من الناس يستمعون فيها الى خطب خلابة .
انما نتصورهم في حفلات إيناس صغيرة حول مواقد النار في المضارب والخيام ،
في مراكب شراعية سابحة فوق المياه ، في قوافل سائرة في الصحراء ، في
أماكن كهذه يروون قصة نجار الناصرة المصلوب . يروون قصة اعلان محبة الله
الى جماعات صغيرة في الأسواق ، والى رفاقهم المسافرين في الطرقات الرومانية
المعبّدة ، والى معارفهم من عابري السبيل في الضياع الصغيرة .

ولما وصلوا الى انطاكية تابعوا هذه الرواية عينها عن يسوع الذي كان
يُدعى المسيح . ومع أنهم لم يكونوا متطفلين مضايقين في بث دعوتهم، فان
العاصمة السورية قد استيقظت وتنبهت، وظهر في تلك المدينة الشهوانية الجافة
المفعمة بالثقافات غير المشبعة — قوم ممن استمعوا وآمنوا .

وهل يذكر لنا العهد الجديد في مكان آخر إسم أحد من أولئك
التلاميذ المجهولين ؟ ذكر الفصل الثالث عشر من سفر الأعمال أسماء خمسة
من زعماء الكنيسة في انطاكية « ... برنابا وسمعان الذي يدعى نيجر
ولوكيوس القيرواني ومناين الذي تربى مع هيرودس رئيس الربع وشاول » .
وقيل لنا في الفصل الحادي عشر كيف اشترك برنابا وشاول مع الكنيسة، فلم
يكونا إذن من الزعماء القدامين هناك وبقي لنا بعد ذلك ثلاثة ، منهم
لوكيوس القيرواني. ولا يبعد أن يكون هذا أحد الدعاة الاولين الذين شرعوا
أولا في بث الدعوة للانجيل . و بينهم آخر يسمى سمعان نيجر ، وتدل تسميته

على أنه كان أسمر اللون والارجح أنه كان من أفريقية . ويقول بعضهم ان سمعان هذا هو بعينه سمعان القيرواني الذي حمل صليب المسيح عنه في طريق الآلام . ويذكر البشير مرقس ولدي سمعان بالاسم وهما الكسندرس وروفس كأنهما معروفان في الكنيسة الأولى . وقد أثيب حامل الصليب هذا بأن صار ولداه من الأتباع الموالين لذاك الذي حمل الصليب . ولماذا لا نرجح أيضاً أن الذي تطوع لحمل الصليب في طريق الجلجثة ، حمل أيضاً الأخبار المفرحة عن المسيح المقام إلى أهل مدينة انطاكية ؟ وهل هناك أجدر بالمناداة بمحبة الصديق الألصق من ذاك الذي صادق المسيح وسار الى جنبه في طريق الموت ؟

غير أننا اذا أطلنا الحديث، وحاولنا تعرّف تلك الشخصيات المجهولة في انطاكية ، تضيع علينا تلك الأمثولة الحسنة في جهلنا إياهم . فان عمل الله لا يقوم فقط على اكتاف الزعماء الذين تطبق شهرتهم الآفاق . لأن الروح القدس يستخدم أحياناً مَن لا شهرة لهم ولا جاه ولا نفوذ للبدء في مشروعات جديدة . وهو لا يُعاق في إتمام قصده بسياسة دينية كنسية أو تقاليد بالية أو هيئات رسمية، اذا تعمدت هذه الوقوف في وجه الحق. والابطال المجهولون في هذا العالم جمهرة لا تحصى من البشر . والقديسون الذين عاشوا وماتوا للايمان جمع غفير من بني الانسان .

وفي العالم كثيرون أمثال رجال قبرس والقيروان، شرعوا في نهضات عظمى ، وقاموا باكتشافات نافعة ، وجازوا في مخاطرات جسيمة ومع ذلك لا تُنصب لهم النُصب التذكارية للاشادة بأعمالهم وفعالهم. خذ مثلا البوصلة وتأمل

نفعها وضرورتها للملاحة . ومع ذلك فلا يعرف أحد بالتدقيق من هو مخترعها.
وقد اختلف المؤرخون في ذلك ولسنا ندري إن كانت قد جاءتنا من الصينيين أو العرب أو اليونان أو الطليان أو غيرهم. وأيضاً من الذي فكر قبل سواه في رفع حجر بعصا ؟ لا يدري أحد . ومع ذلك فصاحب هذه الفكرة هو الذي ابتكر العتلة الرافعة التي هي من مستلزمات الميكانيكا . أو من ذا الذي استعمل لأول مرة قرصاً مستديراً من جذوع الشجر كعجلة تدور ؟ قد نسي اسمه حتى في عصور ما قبل التاريخ . ومع ذلك فما ألزم العجلة للآلات الميكانيكية !

ولم يكن تلاميذ انطاكية فقط الأبطال المنسيين في القرن الأول . لأن الـكاهن « ستريتر » يقول في كتابه ، « الـكنيسة الأولى » :

« انشأ بولس الرسول كنائس اكثر من أي إنسان آخر ، ولـكنه لم يكن أول من بث الدعاية المسيحية بين الامم الوثنية . انما الفضل في ذلك يرجع الى تلاميذ مجهولين من قبرص والقيروان . وقد كان بلا شك أول من غرس بذور المسيحية في مدائن آسيا الصغرى ومكدونية واليونان، ولـكنه لم يكن اول مؤسس للـكنيسة في المدائن الثلاث الـكبرى التي امتازت بشهرتها واتساعها وقوة نفوذها في حوض البحر الأبيض المتوسط ـ ألا وهي انطاكية والاسكندرية ورومية » . ويشير المؤلف نفسه في مكان آخر الى افتقارنا إلى الأدلة لمعرفة أول من تولى بث الدعوة المسيحية في رومية والاسكندرية، ويتحدث عن تلك المدائن الرئيسية الهامة في اوربا وآسيا وافريقية — وهي المدائن الثلاث التي قامت الـكنيسة المسيحية الجامعة على أسس كنائسها وتقاليدها.

ولسنا نستطيع أن نتجاهل الدّين المعلق في أعناقنا لأولئك التلاميذ المجهولين. وهل ننسى أن الكنيسة الأولى قامت على أكتاف أتباع الناصري الموالين الودعاء الذين لم يعبأوا شيئاً بالصيت والجاه، الذين عاشوا وماتوا لكي يعرف العالم المسيح. وعنهم تلقّينا هذا الالهام، فليس يهمنا كثيراً أن يمدحنا الناس أو يقدحونا، متى كنا أمناء مخلصين للمسيح. وقد يسيء الناس فهمنا أو يقسون في الحكم علينا، وقد لا تنقش أسماؤنا على النصب التذكارية القيّمة. ومع ذلك فان حياتنا تحتفظ بقيمتها وكرامتها متى قمنا بالواجب المفروض خير قيام، ومتى نادينا في إيمان ورجاء ومحبة أن يسوع المسيح قادر بأن يخلص الى التمام كلّ الذين يدعونه.

يَعقوبُ أخو يوحنا



يعقوب أخو يوحنا

في مستهل الفصل الثاني عشر من سفر الأعمال ، قيل ان هيرودس قتل يعقوب أخا يوحنا بالسيف . وبهذه الكلمات الموجزة أسدل الستار على قصة يعقوب ، ثم يستمر لوقا في سرد قصة بطرس الاكثر بروزاً . ومن ثمّ نرى يعقوب يعيش في الخفاء ، ويموت في غير إحتفاء .

ويروي الانجيل الكريم في تفصيل وإسهاب قصة استشهاد استفانوس ، وقد كان باكورة المؤمنين الذين ضحوا بدمائهم من أجل ربهم . وقيل في القصة انه شَخَص الى السماء في ثبات ورباطة جأش ، ورأى يسوع واقفاً عن يمين الله ، أما عن سويعات يعقوب الأخيرة ، ذلك الشجاع الباسل الذي كان يوماً ما صياد الجليل ، فان التاريخ لم يقل عنها شيئاً .

كذلك لم يسجل لنا السفر المقدس شيئاً عن نشاط يعقوب في حمل الرسالة ، ولا نعرف شيئاً عن الجماهير التي أذاع بينها الدعوة ، ولا الأدلة والحجج التي أدلى بها في وعظه ودعوته ، ولا الجموع الغفيرة التي نقلها من الظلام الى النور ، ولكننا نعلم علم اليقين أنه قضى في سبيل قضية أحبها واعتز بها . وعبثاً نقلّب صفحات سفر الأعمال الأولى لنجد ذكراً لعمله وجهاده كبشير ورسول . وقد ذُكر الشيء الكثير عن أخيه يوحنا وعن بطرس ، وحظي آخرون مثل شاول الطرسوسي وبرنابا القبرسي بمكانة ممتازة في الكنيسة ، أما عن يعقوب فقد صمت التاريخ ولم يكن معه سخياً . على

أنه اذا جال بخواطرنا أن نتساءل عن مدى قيامه بنصيبه كاملا في تبعات الرسل ، فذلك تجيب عنه الآيات الافتتاحية في الفصل الثاني عشر من سفر الأعمال .

وترى لماذا أُفرز يعقوب خاصة بين أعضاء الكنيسة ليقطع رأسه سيفُ هيرودس الطاغية ؟ وما السرُّ في أخلاقه الذي جعله الشهيد الأول بين الاثني عشر ؟ ان بحثنا هنا غير مجدٍ ، فلنعد الى أسفار الانجيل الكريم :

ونعلم من قصة الانجيل شيئاً واحداً ، هو أن يعقوب شارك بطرس ويوحنا في منزلة المودة والتقرب من يسوع . وهؤلاء الثلاثة قد ظفروا بشرف الاشتراك مع سيدهم في بعض أزمات حياته فحينما دخل دار يايرس ليصارع الموت لأول مرة ، أخذ معه هؤلاء الثلاثة ، وحينما صعد فوق جبل التجلي ليتحدث هناك الى موسى وايليا عن خروجه العتيد من أورشليم ، كان الثلاثة رفاقاً له في تلك الساعة المأثورة — بطرس ويعقوب ويوحنا . ثم في بستان جثسياني ، في ليلة الغدر به والقبض عليه ، حين امتلأت كأسه حتى فاضت ، طلب الى هؤلاء الثلاثة المختارين أن ينطلقوا معه ليشاركوه في حزنه المرير ، كما أشركهم في مجده فوق جبل التجلي .

وفي غير المناسبات التي ذُكر فيها يعقوب مع الاثنى عشر ، يروي الانجيل الكريم ثلاث حوادث عن حياته :

فأولاً نراه مع يوحنا أخيه وأبيهما زبدي ، يصيدون الأسماك في بحيرة الجليل . وقد لبّى الأخوان دعوة يسوع ليجعلهما صيادي الناس ، في اليوم عينه الذي لبّى فيه الأخوان الآخران — بطرس واندراوس — هذه الدعوة

عينها - وفي بشارة مرقس عبارة تدلُّ على أن يعقوب ويوحنا كانا مفلحين موفقين في عملهما . فقد قيل عن سمعان واندراوس انهما تركا شبا كهما وتبعا يسوع ، أما عن الاخوين الآخرين فقد قيل انهما تركا أباهما زبدي في السفينة مع العبيد والاجراء وتبعاه .

ومرة تفاخر بطرس بأنه ترك كل شيء وتبع يسوع . كذلك ترك يعقوب ويوحنا بيتهما واخوتهما واخواتهما وأبيهما وأمهما وأرضهما من أجل المسيح . وإن صح حدسنا في أنهما كانا يقيمان في منزل واحد به عبيد مأجورون ، فمن الهين أن تتصور مبلغ الـكلفة والتضحية في هذا الصنيع . ولـكن يعقوب نسي المال والمقتنيات والاصدقاء وترك كل شيء من أجل المسيح . وهو ما درى ماذا يخبئه له المستقبل من مفاجأة أو دهش ، لـكنه أيقن أن رحمة الله تشمل الموت والحياة . أحاطت به عوامل الشك ، ولـكن شيئاً واحداً ثبت فيه يقينه ، هو أن يسوع كان صديقه وسيده ، وبه يعتصم ، وفي خطاه يسير .

والحقيقة الثانية التي تسترعي أنظارنا عن ذينك الاخوين يعقوب ويوحنا ، هي أن يسوع أطلق عليهما لقب « ابني الرعد » ، (متى ٣:١٧) . ولعلَّ كثيرين يتصورون أن يسوع اصطفى يوحنا كالتلميذ المحبوب ، لان له مزاجاً كريماً وفطرة محببة ، أو أنه اختار يعقوب الى دائرة صداقته الخاصة ، لان له خلقاً سمحاً جذاباً وقد كان الاثنان غيورين متحمسين ، ولـكنهما افترقا عن بطرس من بعض الوجوه ، فان غيرتهما وحماستهما قد تنقلبان في سهولة ويُسر الى شيء من الصرامة وعدم التسامح . ولدينا في

بشارة متى – في الفصل التاسع – قصة تنبيء على أنهما استشاطا غضباً على أهل السامرة وأرادا أن يدمراها .

والذي حدث أنه في ختام خدمة يسوع الارضية ، ثبّت وجهه نحو اورشليم ، وفي ذات ليلة بعد أن اسدلت الظلمة ستارها ، بعث أمامه برسولين الى مدينة في السامرة ليلتمس المبيت فيها . وكان سامريون آخرون قبل هذا التاريخ بثلاث سنوات قد طلبوا الى يسوع أن يمكث معهم ، أما أهل هذه المدينة بالذات ، فقد أبوا هذا الطلب الآن .

وابنا الرعد لم يطيقا ان يريا انعدام روح الكرم والضيافة على هذا النحو ، واستخفاف القوم بسيدهم ، فامتلأ قلباهما حقداً وغضباً . وما كانا قد فهما بعد معنى إباء أورشليم ورفضها المسيح ، ولم يخطر ببالهما قط ان انساناً كائناً من كان يأبى على السيد المبيت والمأوى ، فانقلبت غيرتهما بسبب الحدة والغضب ، تعصباً ، وصار الاخوان المتحمسان متعصبين .

ولعلهما نظرا وهما يسيران في ذلك اليوم ، إلى جبل الكرمل ، وتذكرا الغضب الإلهي الذي هبط على كهنة الوثن الفينيقي في عصر الملكة ايزابل . فهل أولئك السكان الفجار الاشرار في تلك المدينة السامرية أفضل من كهنة البعل؟ وقد صلّى ايلياء واستنزل ناراً من السماء اكلت أولئك القوم الماكرين الاردياء . أما يسوع فنظر الى الاخوين وعنّفهما ، فرحلا الى قرية أخرى . وقد أحسن يسوع في تسميتهما « ابني الرعد » ، وذلك لان عدم الاكتراث قد أثار نفسيهما ، ولم يفكرا إلا في المقاومة والانتقام .

والغيرة النبيلة تغدو أحياناً حسداً دنيئاً . وكانت رغبتهما في الانتقام

من السامرة بعيدة عن الروح المسيحية . وقد يضلُّ الولاء ويحيد عن جادته، ولكن هناك ما اسوأ من هذا، وأعني به المصباح الخامد المنطفىء والخنصر السائب المسترخي . ولذلك نرى اعمال كنيسة لادوكية موضع المذمة ، فيتقيأها الرب من فمه لانها ليست باردة ولا حارة .

إن المسيحية في هذا العصر الحديث تفتقر الى ولاء يشبه ولاء يعقوب ويوحنا . ونحن يعوزنا في أحيان كثيرة روح المغامرة في التلمذة ، وتشكو الكنيسة من فتور العزم والبرود ، بينما ينبغي أن تستيقظ وتحتدّ حين ترى العالم يأبى قبول رسالة رئيس السلام .

إن غيرة يعقوب قد ساقته الى الطمع ، كما ساقته من قبل الى التعصب . ففي حادثة ثالثة يُروى عن يعقوب ويوحنا أنهما أقبلا يوماً مع أمهما ، طالبين أن يكون لهما المكانة الفضلى والاسمى في الملكوت .

وكان قد سمعا السيد يقول مرة ان الذين تبعوه سيجلسون على اثنى عشر عرشا ليدينوا أسباط اسرائيل الاثنى عشر ، يوم يجلس ابن الانسان فوق عرش مجده .

وهما لم ينسيا هذا الوعد السخي الباهر ، وراحا يفكران فيه . وهما قد رفضا ان يفهما المعاني العميقة في احتمال رفض القوم للمسيح وصلبه في آخر الامر ، واحتسبا ان ملكوته سيجيء بأي حال ، وتاقا الى احتلال مكانة الكرامة والفضل بين الانصار والأتباع .

قد أبديا غيرتهما وحماسهما نحو يسوع ، والآن يبديان حسدهما وغيرتهما من بطرس . فهذا الأخير قد وُعد ان يتناول مفاتيح الملكوت ، فلماذا لا

يكون لهما أيضاً أقرب الامكنة للملك . ولم يقتصرا في هذا الشطط على إخضاع أعدائهما السامريين ، بل أرادا أيضاً التفوق على زملائهما من التلاميذ .

ولـكن يسوع يجيبهما : « لستما تعلمـان ما تطلبان . أتستطيعان أن تشربا الـكأس التي سوف أشربها أنا ، وان تصطبغا بالصبغة التي أصطبغ بها انا » . قالا : « نستطيع » . فقال لهما : « اما كأسي فتشربانها ، و بالصبغة التي أصطبغ بها انا تصطبغان ، وأما الجلوس عن يميني وعن يساري ، فليس لي أن أعطيه » .

قد أضلّ الأخوان في مطامعهما ، وقد أُسخط التلاميذ الآخرون وأثيرت فيهم مكامن الحقد . ولعلّهم هم أيضاً طمعوا في نيل مكانة رفيعة ، ولـكنهم عجزوا عن الافصاح عما كان يدور بأخلادهم . ومرة قبل هـذه ، وقد اقترب التلاميذ في سيرهم نحو كفر ناحوم ، اشتدّ بينهم اللجيج عمن يكون الأعظم . على أن في هذا الحادث بصيصاً من الرجاء . فانه على الرغم من المطامع والرغبة الذاتية التي دفعت يعقوب و يوحنا الى طلب السيادة ، هناك الاستعداد الرائع للسير وراء يسوع الى المنتهى . فهل نحن نقدر أن نجيب في ثقة وشجاعة قائلين « نستطيع » ، كما فعل ذانك الرسولان .

هذه هي الصورة التي يرسمها الانجيل عن يعقوب ، رجلا متأهباً للتلمذة المحفوفة بالمغامرات والمخاطر ، شديد الولاء والاخلاص لقضية ملـكوت المسيح . على أن صورة هذا التلميذ مغمورة دائماً في صورة اخيه يوحنا . فنحن نعرف متى العشار ، وتوما المرتاب ، و يهوذا الخائن ، اما يعقوب فقد أخفاه ظلّ اخيه يوحنا .

وبين المفسرين مَن يذهب إلى ان يعقوب يلي بطرس في الاهمية وسعة النفوذ . فيوحنا علا كعبه في خلال القرن الاول من تاريخ الكنيسة ، ولكن يُظن ان يوحنا ظلّ مختفيا وراء يعقوب أخيه الاكبر ، إلى ان تجرّع هذا الاخير كأس الموت ، فظهر الاصغر بعد موت الاكبر . والدليل على ذلك ان يوحنا يُذكر دائما - إلا في حالة واحدة - الاخير بين الثلاثة ، وتسرد قصة الانجيل دائما أسماءهم على هذا الترتيب : بطرس ويعقوب ويوحنا . ويُوصف يوحنا انه أخو يعقوب ، كما ان اندراوس يقال عنه أخو سمعان بطرس .

ومما هو جدير بالذكر ايضا ان يعقوب احتل مكانة الشهرة والامتياز بعد بطرس ، بسبب الحادثة التي دوّنت في الفصل الثاني من سفر الاعمال . فان هيرودس قد أراد أن يغيظ الكنيسة ويعطلها ، فاختار الاثنين البارزين — بطرس ويعقوب — وجعلهما هدفاً للاضطهاد والسجن والموت . وانّا لنتساءل عما كان يفعله خلال الأربع عشرة سنة التي تقضّت بين صعود المسيح وبين استشهاد يعقوب ، والى أين حمل شهادته ودعوته ، وهل عاد الى تلك المدينة السامرية التي كان قد طلب من قبل أن تنزل عليها نار غضب الله ، وانبأ أهلها عن مجيء المعزي ، الروح القدس ، بألسنة كنار على رؤوس المؤمنين . . . هذا كله موضوع للحدس والتخمين ليس إلا . على أي حال قد مات باسلاً ، وان يكن قد عاش محتجباً مختفياً . كان شاهداً وشهيداً . وقد اتخذت إحدى البعثات الدينية الكبرى شعارها ، صورة ثور إلى أحد جانبيه مذبح ، وإلى الجانب الآخر محراث ، ونقشت تحته هذه العبارة وصفاً

للشمار : « مستعدٌ لأيهما » ، أللعمل أم للذبح ، للشهادة أم الاستشهاد ، كما فعل يعقوب الذي توّج سني شهادته بتاج التضحية الكبرى .

والدرس الذي نتعلمه من حياة يعقوب أن هناك شيئاً أهم من الحياة ذاتها . ويختم دكنز روايته « قصة المدينتين » بمشهد المقصلة في عصر الثورة الفرنسية ، فيه يرتفع « سدني كارتون » الذي عاش حياة غامضة مختفية يائسة إلى مرتبة البطولة والاستبسال ويبذل حياته من أجل آخر . وإذ تحسُّ رقبته مسّة المقصلة الرهيبة يقول : « إن الذي أفعله الآن ، أفضل جداً من أي شيء فعلت من قبل ، وان الراحة التي استقبلها أفضل من أي شيء عرفت من قبل » .

وما أليق أن يقول يعقوب الرسول وهو يترقب سيف هيرودس في سجن اورشليم ، ويتأمل سني شهادته وجهاده في سبيل المسيح ومحبته : « اني افعل شيئاً افضل جداً مما فعلت من قبل . لقد بذل حياته من أجلي ، أفلا أبذلها من اجله » .

سَمْعَانُ الغَيُورُ



سمعان الغيور

يعيش بعض الاثني عشر من حواريي المسيح وتلاميذه في التاريخ بأسمائهم فقط ، فلم تقترن حياتهم بفعال بارزة سجلها لهم التاريخ. ويتميز اثنان منهم على الأقل عن الآخرين بذكر أسماء آبائهم ، فنحن نعرف يعقوب أخا يوحنا وابن زبدي ، ولكن يعقوبا آخر أحيط بكثير من الغموض فقيل عنه ابن حلفى . كذلك اقترن اسم يهوذا الأسخريوطي الذي خان سيده بالذلة والهوان ، وغدا علماً للخيانة والغدر ، ولكن يهوذا الآخر الذي قيل عنه ابن يعقوب لم تعرف له شهرة ولا ذكرت عنه قصة ، إذا استثنينا سؤالاً تقدم به إلى يسوع في العلية : « فقال له يهوذا ليس الأسخريوطي يا سيد ماذا حدث حتى انك مزمع أن تظهر ذاتك لنا وليس للعالم » (يو ١٤ : ٢٢)

ويقف المدعو سمعان ـ غير سمعان بطرس ـ موقفاً فريداً بين تلاميذ المسيح ، إذ يدعى « الغيور » . على أن هذا اللقب الذي أطلق عليه هو كل ما دوّن عنه في التاريخ . وعلى قدر شهرة سمعان بطرس وذيوع صيته ، كان اختفاء سمعان الغيور وانزواؤه . وقد يبدو بعيداً عن الصواب أن نرسم أخلاقه ونحدد خدماته للملكوت من نعت واحد لصق به ولقب معين أطلق عليه . وقبل سنوات برز عالم من كبار العلماء علا كعبه في دراسة الحيوانات

المنقرضة التي عاشت ما قبل التاريخ ، ومن عظمة كبيرة كشفها في جوف الأرض ، صوّر مرة في خيالاته تشريحاً كاملاً لهذا الحيوان المجهول ، ثم كوّن هيكلاً عظمياً ينسجم مع تلك العظمة الواحدة . ومن سوء طالعه أن كُشف فيما بعد عن ذلك الحيوان الغريب ، وإذا بهيكله العظمي أبعد ما يكون عن ذلك الهيكل الخيالي الذي ابتكره العالم في تصوراته . كذلك خليق بنا في تحليل شخصية سمعان الغيور أن نتحاشى الابتكار والاختلاق من خيالاتنا . على أن هذه اللفظة الواحدة تحمل جملة من الحقائق تبرر هذه الدراسة التحليلية لتلك الشخصية المجهولة .

ولئن كان كلٌ من متى ولوقا يخص سمعان هذا بلقب آخر ، ويقول عنه « القانوني » ، فان هذه الكلمة لا تشير إلى أرض كنعان ، ولا إلى بلدة قانا الجليل . وليست لها دلالة جغرافية ، إنما هي اسم لحزب أو لجماعة من اليهود ، ونشتق من كلمة عبرانية معناها « الغيرة والحماس » ، وقد ترجمها البشير لوقا ترجمة صحيحة في روايته .

والكلمة إذ تطلق على تلميذ، تصف رجلاً مخلصاً الاخلاص كله لقضية ما ، متفانياً فيها إلى أبعد حدود التفاني . وكأحد أتباع يسوع نظن أن يكون سمعان هذا متحمساً في قبول فكرة المسيا ومطاليبه التي ادعاها يسوع لنفسه والتي آمن بها أخيار اليهود ، وأن يكون غيوراً مثابراً على أن يتقاسم وصحابه البركات والنعم التي جاء بها منقذ الخاطئين . ونظن أيضاً أنه في الوقت المعين لم يتوانَ ولم يتردد في التنقل براً وبحراً ، يجوب الأمصار والبلدان للقيام بالمهمة الخطيرة التي أوكلها السيد لتلاميذه في حمل رسالة انجيل ملكوت الله .

ولم يتصل بعلمنا أنه كان مندفعاً متهوراً مثل سمعان الآخر ، وقد كان يوحنا التلميذ الشاب محبوباً من سيده أكثر من زملائه ، وعُرف عن أندراوس أنه كان أكثر الناس استعداداً للمجيء بأفراد أسرته إلى المسيح ، واشتهر توما بين الجماعة بالتساؤل والمحاجّة والتفكير والتأمل قبل اتخاذه أي قرار ، ولكن هل بزّ أحدهم سمعان الغيور في الاخلاص العميق والولاء الخالص الذي لا تشوبه شائبة ؟

وأحياناً نعيب الحماس ونظنه كالبذرة تُغرس في أرض متحجرة ، تنبت سريعاً ولكنها لا تلبث أن تذوى لأقل مقاومة تصادفها ، ونظن أن الحماس قد تنطفيء شعلته وشيكاً ، وأن الغيرة تُستهلك مع الزمن ، ولكن الكنيسة افتقرت في القرن الأول ، كما تفتقر في القرن العشرين ، الى تلاميذ تفيض قلوبهم بالحماس المجرد عن الأنانية ، والغيرة المتفانية . بل يفتقر كل عصر جدّ الافتقار الى رجال أمثال جون نوكس يصيح قائلا : «اعطني اسكتلندا وإلا فالموت بغيتي» . ولم يصل العالم قط في أي عصر من عصوره الى حد الإشباع من رجال أمثال لفنجستون الطبيب ومكتشف قلب القارة الافريقية ، أو وليم كاري ممهد طريق البعثات الدينية في بلاد الهند ، أو وليم بوث مؤسس جيش الخلاص ، أو ولبرفورس الذي كافح في سبيل قضية الرقيق — ونساء من مثيلات فرانسز ويلارد بطلة جمعيـة الاعتدال المسيحية ، وفلورنس نيتنجيل التي شرفت بجهودها فن التمريض ، وماري سليسور نصيرة الطبقات المظلومة في افريقية — كل هؤلاء وغيرهم حسبهم العالم مفرطين في الحماس والغيرة ، وشاذين في أطوارهم ، ومتعصبين لأقضيتهم التي ناضلوا في سبيلها ،

ولـكن ما أعظم العجائب التي جرت على أيديهم في القرون المتأخرة .

وفضلا عن الفـكرة المأخوذة عن اشتقاق كلمة «غيور» في اللغة العبرية، فقد كان لها معنى سياسي خاص في فلسطين في القرن الأول المسيحي . وذلك لأنها أُطلقت على طائفة الوطنيين المتحمسين الذين انضـووا تحت لواء زعيم سياسي يدعى يهوذا الجليلي . وقد أشار غمالائيل المحامي اليهودي الضليع إلى يهوذا هذا في سـير التحقيق مع الرسل الأولين (أعمال ٥ : ٣٧) . ويقول يوسيفوس المؤرخ اليهودي الشهير في مؤلفاته ان أتباع يهوذا الجليلي هذا ـ فضلا عن اعتصامهم بتقاليد اليهـود كما فعل الفريسيون ـ قد تشبثوا أيضاً بمبدأ الحرية ونادوا أن الله وحده هو حاكمهم وسيدهم . وقد تجارى ذلك الزعيم على تحريض قومه لـكي لا يخضعوا ويستكينوا إلى الضرائب الباهظة التي فرضها عليهم الرومان الغزاة ، وحضّهم على العصيان والثورة وإلا كانوا جبناء قليلي الحول والطول .

وقد تمتع يهود الشتات بكثير من المزايا في ظل الحـكم الروماني . فكان يوليوس قيصر حاميهم وراعيهم ، وأذن لهم أوغسطس قيصر باجراء شـعائر عبادتهم في غير عنت ولا إحراج ، وأعفاهم من الاشتراك في الحفلات والمواسم المقترنة بعبادة الامبراطور التي حسبوها عبادة أوثان . وكان لهم الحق في رفع قضاياهم المدنية أمام محاكمهم الخاصـة ، وأشرفوا على تحصيل أموالهم الخاصة وإدارة مؤسساتهم .

أما في اليهودية والجليـل فقد حُسب الرومان معتدين غاصبين لأرض الموعد المقدسة التي أقطعها الله لليهود . وكثيراً ما تجارى الغاصبون على تدنيس

حرمة أماكنهم المقدسة، واحتقار طقوسهم وعاداتهم العزيزة عليهم. وكانت فكرة الرعوية الرومانية الشاملة العالم كله - حتى اليهود - مغيظة لهم، مسيئة اليهم. وبينما مال يهود الشتات المبعثرين في المدائن اليونانية والرومانية إلى فكرة التسامح والتساهل، تشبث يهود فلسطين بالفكرة الضيقة المتعصبة.

وأغلب الظن أنه وقعت في ذلك الزمن حوادث تخريب وتدمير، كما يحدث اليوم في البلدان التي يجتاحها الغاصب، ولعل اليهود أيضاً أبوا التعاون مع الرومان المعتدين، كما كان يحدث في الهند مثلا قبل سنوات. ولكن بين الفينة والفينة كان يثور حزب المتطرفين من اليهود المطالبين بالاستقلال الداخلي، ويحبك الدسائس والمؤامرات لانقاذ البلاد من أيدي غاصبيها. وكانت تضطرم أحياناً حرب العصابات المنظمة العنيفة ضد الرومان، ويعمد القوم الى استخدام السيف والخنجر.

كان سمعان الغيور أحد أولئك المتطرفين. ويثبت التاريخ أن ثورة يهوذا الجليلي انتهت بالفشل، كما يشهد بذلك المحامي غمالائيل، لكن نيران الحقد والكراهية اتقدت في قلوب كثيرة. وربما يكون سمعان نفسه قد اشترك في بعض المناوشات ضد الحرس الروماني، واستل سيفه لانقاذ الأرض المقدسة من الغاصب المعتدي.

ولكن سمعان هذا بصيرورته تلميذاً ليسوع المسيح، لم يفقد غيرته ولا محبته لوطنه. فحتى بعد انقضاء سنين طوال، وربما إلى آخر يوم من أيام حياته، عُرف هذا التلميذ « بالغيور » المتحمس وظل اللقب عالقاً به، ولذلك هو يمثل في نظرنا الوطني المسيحي، لأن حب الوطن عاطفة دقيقة

حساسة، توقظ أبلد النفوس حساسية وأكثرها تهكماً. ولطالما تغنّى بها الشعراء، فاهتزت لها أوتار القلوب، وطربت لها الوجدانات. وانك لتسمع الشاعر جولد سمث يقول في قصيد له ان سكان المناطق القطبية المتجمدة يتعشقون بحارها العاصفة وأعاصيرها المائية، وأن الزنوج العراة في المناطق الاستوائية يفخرون برمالها الذهبية ولفحاتها المحرقة.

ولكن كم من جرائم نكراء، ارتكبت باسم الوطنية، كما ارتكبت باسم الدين. ولأن الوطنية عاطفة نبيلة كريمة، كثيراً ما يسيء الناس فهمها وتلتوي عليهم مقاصدها ومراميها. وكما كان في فلسطين قديماً، كذلك نشهد اليوم أحاسيس متنكرة مقنّعة تحت ستار الوطنية، وهي ليست في الواقع إلا أناشيد فجّة مستقبحة، وكراهية عنصرية مرّة. وتتصايح عادة القومية الكاذبة الباطلة قائلة: «بلادي! بلادي! فوق الجميع، وخيرها وأمنها فوق كل اعتبار ولو على حساب الآخرين». وما أخلق أن يكون شعار الوطني الصادق: «بلادي تُصلح الخطأ وتجمل الموج مستقيماً» بدلا من «بلادي، هي بلادي، سواء أكانت على الحق أم في الباطل».

ولعل القراء يذكرون قصة «أديث كافل» الممرضة البلجيكية التي أعدمها الألمان في الحرب الأولى، وتلك الصيحة التي خرجت من حلقومها وهي تواجه نيران الجلادين: «الوطنية ليست كافية». واقد تلقن سمعان أشياء كثيرة عن يسوع في خلال السنوات الثلاث التي قضاها في صحبته، ولكن أوضحها وأبرزها ذلك الحق العظيم الذي تنطوي عليه العبارة القائلة «الوطنية

ليست كافية » ، وذلك لأن ألد عدو لليهودية وأورشليم لم تكن رومية ، بل الأنانية والرياء والرذيلة والخطيئة .

ومن أفظع المآسي التي يعانيها العالم في هذا العصر ، أن قوماً يؤمنون أن الديمقراطية كفيلة بحل مشاكل العصر ، وأن السلام معلق حتما بعقد الاتفاقات الدولية . على أن أسمى وطنية وأرقاها وأصفاها لا تنتهي عند هذه الفكرة . فأيهما أدى خدمة أعظم لوطنه وبلاده ، آخاب ملك اسرائيل بتوقيعه ميثاق التحالف مع صور ، أم إيلياء باصغائه إلى صوت الله الخفيف الهادىء ؟ وأيهما كان أصدق وطنية ، يهورام باتفاقيته مع يهوذا وآدوم ، أم اليشع وهو يأمر نعمان السرياني قائلا له : اذهب واغتسل في الأردن سبع مرات ؟ وأيهما كان أكثر حباً لليهود ، هيرودس أغريباس الثاني الذي - كما روى التاريخ - دافع عن قضيتهم أمام الامبراطور ، أم بولس الرسول الذي كتب لهم قائلا : « أيها الأخوة إن مسرة قلبي وطلبتي الى الله لأجل اسرائيل هي للخلاص » ؟

وقد ذهب كثيرون من شراح الانجيل الى أن في سمعان الغيور هذا مثالا على قوة المسيح في الجمع بين النقيضين والصلح بين الخصمين . فقد كان بين جماعة التلاميذ القليلة ، التي لم تتجاوز الاثني عشر عداً ، صيادو سمك وغيرهم من أرباب الحرف الأخرى ، يتفاوتون في الأمزجة والطباع والمواهب . على أن الخلاف كان على أشده بين متى العشار وبين سمعان الغيور ، وقد تمكن المسيح بقوته من التوفيق بين هذين المتطرفين في المذاهب والآراء .

فان سمعان بحكم انتمائه الى حزب المتطرفين ، كره الضرائب الرومانية واحتقر جامعها وجابيها ، وكانت مبادىء حزبه أن يأخذ بالسيف والخنجر العمال الذين استخدمتهم رومية لتنفيذ سياسة الغصب والارهاق . ومتى في نظره كان قد قارف إثماً فظيعاً في سبيل مصلحته الشخصية . ولكن العداوة بين الاثنين قد طغى عليها السلام الخالد في المسيح .

وان كان وجود متى بين الاثنى عشر يدل على عدم تقيّد المسيح بالأقيسة العالمية في تقدير الرجال ، فان وجود سمعان الغيور يدل على شجاعته وعدم مبالاته في إشراك المشبوهين السياسيين معه ، وهو قد رحّب بالمحتقر بين الشعب ، و بالخطر على الأمن العام ، حين تبدت له أمائر ولائهما كتلاميذ أوفياء مخلصين له .

والعالم اليوم تمزقه عدم الثقة بين الدول ، وتغمر الكراهية الارض كلها فهل تُطفأ نيران هذه العداوات ، وتعود النفوس صافية تواقة الى السلام ، أم تبقى النفوس مرة والاحقاد كمينة ؟ وقد يتوق البعض الى إحياء الحياة الرخوة الليِّنة التي عهدها العالم من قبل ، وقد يسعى آخرون الى التفريج عن أنفسهم في نسيان المشاكل العاصفة التي تكتوي بها . ولكن الطريقين كليهما لا يضمنان لنا سلاماً باقياً . فلكي نتصالح مع خصومنا ، لا مندوحة من أن ندرك أن في نظامنا العالمي الحاضر اخطاء يجب تلافيها . ولسنا بحاجة الى النسيان بقدر ما نحن بحاجة الى الغفران ، والمسيح وحده دون سواه هو المصلح الاعظم الذي يقهر هذه العداوات المشبوبة ، الناشئة عن الخطية البشرية .

بريسكلا العاملة



بريسكلا العاملة

ربما يسهل علينا إغفال فئة عاملة لها شأنها وخطورتهـــا بين الهيئات والشخصيات التي ذاع أمرها في بداية العهد الجديد ، وقوى أثرها في كنيسة القرن الأول — ونعني بذلك النساء . وقد نفكر في الرسل والمعلمين والانبياء والبشيرين والشمامسة، كحاملي لواء الدعوة المسيحية في القرن الأول. ولـكننا نخطىء كثيراً إن اغفلنا ذكر النساء ، وما قمن به من الخدمة الجليلة في الـكنيسة .

ولم تكن مكانة المرأة في عصر المسيح مما تُحسد عليه، ولو انها كانت أفضل كثيراً من عصور سابقة في التاريخ البشرى . فلقد أُغلق على الزوجة عند قدماء الاغريق، وعاشت المرأة في عزلة شرقية، فلم تقم بنصيب يذكر في الشئون العامة، وجهلت كل شيء عدا إدارة البيت. ومع ان التزوج بواحدة كان من العادات الوضعية المألوفة ، فان في كثرة العاهرات والفاجرات دلالة على انحطاط مستوى الآداب الجنسية . ومع انه لم يكن للمرأة العاهر كرامة الزوجة ، فقد كانت هي المرأة الحرة الوحيدة في مدينة اثينا ، وقد أُتيح لها دون سواها فرصة البحث في الشئون العقلية الادبية . وكانت « اسباسيا » — التي يقال انها لقنت « بركليس » زعيم الاغريق البيان والفصاحة — نموذجاً

للمرأة الاغريقية المثقفة ، ولـكنها كانت عاهراً . ونجد بين الرومان نماذج رائعة للمرأة المثقفة . ومع ذلك فقد كانت مكانة المرأة القانونية وضيعة لان الأسرة الرومانية قامت على سلطة الرأس — وهو الآب — سلطة غير محدودة لا منازع له فيها ، حتى كان له الحق أحياناً أن يقتل الأم وأولادها دون أن يتعرض له القانون في شيء . ومن الناحية الأخرى كانت الزوجات يظهرن مع أزواجهن في أداء المهام العامة ، وكان للام مكانتها المـكرمة في البيت . وكذا يفصح لنا العهد القديم عن بعض المزايا التي فازت بها المرأة في الحياة اليهودية وفي الدين . وكان التزوج بواحدة شائعاً عند اليهود حتى قبل عصر المسيح كما كان في اليونان ورومية . وتمتعت المرأة اليهودية بحق الظهور في الهيئات العامة بحشمة غير مصطنعة ، وقامت بنصيبها في اكرام الضيوف والترحيب بهم ولـكن على الرغم من كل هذه الحرية فقد أُحيطت بكثير من القيود الأخرى . فكان اثماً شنيعاً ان تلقن المرأة الناموس اليهودي . ويكفي أن نذكر عنهم تلك المقالة « خير للناموس أن يُحرق بالنار من أن يوكل أمره إلى المرأة » ، وتلك الصلاة التي كان يتلوها كل رجل في الصباح شاكراً بها ربه « الذي لم يخلقه أمياً (وثنياً) ، ولا عبداً ، ولا امرأة ! »

أما يسوع المسيح فقد تسامى فوق هذه الحدود الضيقة والعادات الوضعية ، وكان مجيئه بزوغ عصر جديد في حياة المرأة . فاسبغ نعماء الشفاء والتعليم والـكرامة على البشرية دون تمييز بين الرجال والنساء . والى جانب البئر السامرية تحدث الى إمرأة ساقطة عن حياتها المشينة ومصيرها الخالد .

وفي إحدى المآدب انحنت إمرأة خاطئة ودهنت بالطيب قدميه، فنالت منه غفراناً لخطاياها . وقد اعاد الحياة إلى ابنة يايرس ، وحتى في طريقه إلى ذلك البيت أوقفته لمسة إمرأة توسلت اليه في ضراعة أن يبرئها من نزف دمها .

وكان يسوع في احيان كثيرة موضع الخدمة والرعاية من جانب المرأة . ففي الهيكل، وهو بعد طفل في المهد، سبحت له وتنبأت عنه حنة النبية ومن ذا الذي ينسى ضيافة بيت عنيا له، حيث كانت مريم ومرثا تسكنان مع أخيهما لعازر. وقبل آلامه النهائية التي اختتمها بالصليب، دهنته مريم بالطيب الزكي الذي اعتبره تمهيداً لدفنه، واعترافاً بفضله ، واقراراً بدينه ، وسار وراءه فريق من النساء الامينات الشاكرات ممن كنَّ قد شفين من الارواح النجسة والاوصاب المختلفة ، وتبعنه في إحدى رحلاته التبشيرية . وكان بينهن مريم المجدلية التي كانت من أوائل الذين زاروا قبره صباح يوم القيامة .

وعلو شأن المرأة في الشئون الروحية يستمر بارزاً في الكنيسة الأولى . ويرد في السفر المقدس ذكر خاص للعدد الكبير من النساء اللواتي اندمجن في الهيئة المسيحية بأورشليم . ولم يكن انتخاب الشمامسة الاولين إلا لتسوية نزاع ثار حول اعانة الارامل من النساء . وبعد موت استفانوس اشتد ساعد شاول في اضطهاد الكنيسة حتى قيل انه كان « . . يجر الرجال والنساء . . الى السجن » . وفي اللدة اقام بطرس من الموت طابيثا التلميذة التي اشتهرت بأعمالها الصالحة وحسناتها الكثيرة . ولما خرج من السجن ذهب إلى بيت مريم ، ام يوحنا مرقس ، حيث كان من عادة التلاميذ أن يجتمعوا

هناك. ومما قيل ان نساءشهيرات من الطبقة الراقية قبلن رسالة بولس في فيلبي وتسالونيكي و بيرية . و بين الذين انساقوا إلى التعليم الجديد في أثينا لم يذكر إلا اثنان وهما ديونيسيوس العضو في الجمع ، وامرأة اسمها دامرس .

وليس بين شخصيات النساء اللواتي ذكرن في سفر الأعمال ورسائل بولس ابرز من بريسكلا . فهي نموذج نبيل للمرأة المسيحية في القرن الأول . ونسمع عنها أولاً في كورنثوس، وهي مدينة اشتهرت بين مدائن الوثنية البائدة بالسكر والبطر والخلاعة والفسق والرذيلة وفوق كل شيء بانحطاط نسائها وذلك لان عبادة الإلهة افروديت، تلك العبادة الشهوانية الشرهة ، قد أجازت بحكم الدين العهر والفساد . وكان لتلك الإلهة ألف من العاهرات هن الكاهنات في الهيكل المخصص لعبادتها! والى هذه المدينة الشريرة الفاسقة جاءت بريسكلا مع زوجها أكيلا وهو يهودي بنطي المولد ، ولكنه طرد من رومية ، حيث كان مسكنه ، بسبب الأمر الذي أصدره الامبراطور كلوديوس باقصاء جميع اليهود عن رومية . وعند ما قدم بولس إلى كورنثوس بعد أن لفظته أثينا بجحدها وعدم مبالاتها ، جاء كما يقول عن نفسه فيما بعد « في ضعف وخوف ورعدة كثيرة » (١ كور ٢ : ٣) . ولكنه تشدد إذ وجد اكيلا و بريسكلا زميلين مسيحيين له ومن صانعي الخيام مثله . وقد اقام معهما واشترك ثلاثتهم كجنود زملاء في الدفاع عن قضية المسيح ضد الخطية والعهر والفساد والاثم المتفشية في المدينة . ولما غادر كورنثوس وعاد إلى أورشليم وانطاكية ، رافقه الزميلان الجديدان حتى أوصلاه إلى أفسس .

ومع أن التناسق في العمل بينهم كان تاماً، إلا انهما لم يكونا مدينين له في تلقينهما الرسالة المسيحية . كان عملهما يرمي إلى هدف واحد مثل بولس، ولكنهما كان مستقلين عنه . وقد وقع تحت تأثيرهما شاب اسكندري يدعى أبولس، وتلقى عنهما ملء الانجيل . وفي ختام رسالته إلى رومية بعث اليهما بولس بتحياته، مما يدل على انهما عادا إلى رومية بعد سنوات قلائل، بعد اذ أُلغي قرار الامبراطور القاضي بإقصاء اليهود، أو بطل تنفيذه على الاقل. ولكنهما لم يبقيا طويلاً هناك إذ نرى بولس بعد سنوات يبعث بتحياته اليهما مرة أخرى في رسالته الثانية التي كتبها إلى تيموثاوس من رومية . والارجح جداً انهما عادا إلى أفسس مرة أخرى .

— ١ —

ويؤيد اكليمندس الاسكندري في أحد مؤلفاته الدور الهام الذي لعبته المرأة في العصر الرسولي إذ يقول: « نفذ تعليم المسيح في غير حرج إلى دوائر النساء عن طريق المرأة » ولكن بريسكلا زوجة اكيلا كانت ايضاً معلمة الرجال. ويُذكر اسمها قبل زوجها في أحيان كثيرة في سفر الاعمال وفي رسائل بولس ، مما دعا كثيرين من العلماء الى الاعتقاد أن الزوجة كانت أقدر من زوجها، وأوفر منه حظاً في النبوغ والكرامة . ويستخلص يوحنا فم الذهب من الطريقة التي ورد بها ذكر اسمها في سفر الاعمال (ص ١٨ : ٢٦) انها هي التي تعهدت بالتعليم أبولس تلميذ يوحنا المعمدان . وقد كان هذا الشاب الاسكندري عالماً ، متضلعاً في الثقافة الاغريقية . فبديهي أن يكون معلمه

من واسعي العلم والاطلاع. ويعتقد «هارناك» ان هنا ما يعضّد الزعم القائل ان الرسالة إلى العبرانيين من نفثات يراعتها أو من يراعة زوجها.

ولم يُذكر عنها انها من الجنس اليهودي كزوجها. ولذلك يقولون عنها انها من أصل روماني. ويستنتج البعض من الكلمة اللاتينية الاصلية المشتق عنها اسمها، ومن مكانة الكرامة التي امتازت بها، انها تحدرت من أسرة رومانية عريقة.

وقد اُختير في القرن الأول المسيحي بعض النساء لوظائف الكنيسة. فجاء في رسالة بولس إلى رومية (ص ١٦ : ١) اسم فيبي خادمة أو شماسة الكنيسة. وكان في مدينة قيصرية اربع هنّ بنات فيلبس اللواتي كنّ يتنبأن. وقيل ان النساء في هيروبليس في فريجية فزن بقسط وافر من الشهرة والكرامة. ونقرأ في المؤلفات الاخرى — غير الاسفار المقدسة — عن نساء في أفسس وانطاكية وايقونية وغيرها كنّ يتنبأن، وبينهن «تكلا» التي ذاع صيتها كمعلمة مرسلة.

اما بريسكلا فلم تكن ـ على ما نعلم ـ تشغل أية وظيفة في الكنيسة. وهنا مصدر فخارها، إذ فيه دلالة على أن مجرد الانضمام إلى الكنيسة في العصر الاول كان معناه الشهادة، وتلقين الآخرين حقائق الدين. وقد كانت الكنيسة بأسرها هيئة تبشيرية حاملة لواء الدعوى. والذين تذوقوا السلام والفرح والمحبة في المسيح حسبوا أنفسهم مديونين للآخرين الذين لم يحظوا بعد بشيء من هذا كله.

ويلذُّ لنا النظر إلى اتساع نطاق خدمة بريسكلا . وهل هناك كلمات ابلغ في التعبير عن ذلك من رسالة بولس الى كنيسة رومية : « سلموا على بريسكلا واكيلا العاملين معي في المسيح يسوع . اللذين وضعا عنقيهما من أجل حياتي. اللذين لست أنا وحدي اشكرهما بل أيضاً جميع كنائس الامم » (رومية ١٦: ٣-٥). والظاهر انه حلّت ببولس أزمة خانقة تعرضت حياته فيها للخطر، فتطوعا وجازا معه منطقة الخطر، وعرّضا رقبتيهما طوعاً الى السكين. وقد يكون هذا القول لفظاً مجازياً . وربما كان المقصود أنهما تولّيا العناية به في مرض مخيف أو حمى معدية قاتلة . فليس مما يدهش اذن ان يجيء اسم بريسكلا قبل اسم زوجها، لان المرأة اصلح من الرجل، وسبّاقة في العناية بالمرضى واغاثة المنكوبين . وهي بفضل خدمتها وجهودها قد أنقذت حياة بولس الذي رفع لواء المسيحية في الامبراطورية الرومانية، ولم يكن له من يعنى به، لا زوجة ولا أخت ولا ابنة .

— ٢ —

وكانت بريسكلا كزوجة صانعة خيام (اعمال ١٨: ٨) . فكأنهما تعاونا معاً لكسب عيشهما، فكانا شريكين كما كانا زوجين وكانت حرية الرأي تتزايد في عصر الامبراطورية الرومانية ، لا سيما بعد أن اختمرت المؤثرات المسيحية في الحياة الاجتماعية والسياسية . وكانت المرأة مستقلة من الوجهة القانونية ، كما انها حظيت بمكانة الكرامة من الوجهة الاجتماعية فكان لها

الحق في احتياز الملـكية . واقرب شاهد على ذلك ليدية في فيلبي التي أضافت بولس وسيلا، وقد كانت هي نفسها تاجرة .

والمرء لا يسعه إلا أن يتساءل عن المـكانة الرفيعة التي اعتزت بها بريسكلا بينما كان معروفاً عنها انها صانعة خيام . وتعليل ذلك أننا نجد في رومية، في أحيان كثيرة، سذاجة الاخلاق وشظف الحياة يتمشيان جنباً إلى جنب مع الرفاهية والنماء . وقد قيل ان أوغسطس قيصر أمر بناته وحفيداته بتعلم النسيج والغزل ، وكانت زوجته واخته تحيكان له أغلب الملابس التي كان يرتديها .

أو ربما اضطر ذانك اللاجئان من رومية الى احتراف صنعة جديدة لـكسب عيشهما . وما اكتسبته بريسكلا من تعليمها شغل الابرة في حداثتها، انتفعت به عند حلول أزمة الحياة في تعلم صناعة الخيام . ولا يسعنا هنا إلا أن نقف معجبين أمام شجاعة تلك الزوجة ونشاطها، وهي تقوم مع زوجها في النفي بكسب العيش والتغلب على الازمة الاقتصادية الخانقة التي حلت بهما .

ويسعى النساء اليوم الى الاشتغال في مناهج مختلفة في الحياة والسير في مسالك جديدة . فـكثيرات منهن يتأهبن للمهن الحرة كدراسة القانون ، والطب ، والاعمال التجارية ، والتعليم . ولـكن الارجح انه لن يخرج الى معترك الحياة عدد كبير من الطبيبات بالنسبة الى عدد الرجال . ولن يكون بينهن إلا القليل من المحاميات أو اساتذة الجامعات . غير أن هذا لا يعني ان المرأة ليست مساوية للرجل، أو أنها لا تقدر أن تقف معه شريكة حقيقية على قدم المساواة .

وهناك بعض المهن أعطيت فيها المرأة الهبات والميزات الخاصة بحيث تسمو فيها على الرجل، ولكن ليس أهم للحضارة والمسيحية من ذلك النموذج النبيل الذي يبدو لنا قائماً في بريسكلا، فقد كانت مشيرة ناصحة، وشريكة حقة لزوجهـــا .

— ٣ —

واخيراً نسمع بولس الرسول يقول وهو يكتب الى أهل كورنثوس — ربما من رومية — « اكيلا وبريسكلا يسلمان عليكم في الرب مع الكنيسة التي في بيتهما » وفي ختام رسالته إلى رومية يقول عن بريسكلا واكيلا : « سلموا على الكنيسة التي في بيتهما » . فهما قد أسسا بيتاً في النفي والتجوال حيثما حلا . وكان ذلك البيت سواء في رومية أو في أفسس أو في غيرها مقر كنيسة . فهما اشبه بابراهيم وسارة في القدم، اللذين كانا غريبين نزيلين في هذه الارض . لقد استوطن اكيلا وبريسكلا مدائن كثيرة ولكنهما لم ينتميا الى واحدة منها . بل ترقبا في صبر كثير تلك المدينة الخالدة التي صانعها وبارئها الله نفسه . ومع هذا فقد شع من بيتهما أنوار الدين المسيحي، وهناك اجتمع القوم لدرس الكتاب المقدس ، ورفع الصلوات الحارة وأصوات الحمد والتهليل لله خالقهم ، ولتبادل الاختبارات الدينية العميقية التي تذوقوا عذوبتها

والبيت هو المصدر الحقيقي للحياة المسيحية. فبدون معاونته تذهب جهود الهيئات الكنسية والمدارس هباء منثوراً . وأما متى تعاونا معاً فالخير كل الخير لملك الله على الارض .

وليس في الانجيل أي تلميح يؤخذ منه ان حياة الزهد والعزوبة أرفع شأناً من الحياة الزوجية ، أو ان الزواج في أوضاعه الراقية هو استسلام للميول الدنيئة والشهوات المنحطة. وليس في الانجيل ما يستنتج منه ان الراغبين في طهر الحياة وتقديسها عليهم أن يعدلوا عن فكرة تأسيس الاسرة ووضع دعائم البيت . بل بالاحرى نرى المسيحية منذ نشأتها تهتم جد الاهتمام بتقدير الشخصية البشرية في نظر الله ، واعلان المساواة بين الجنسين. فالرجل والمرأة كلاهما مكمل للآخر .

وفي شرح ديمقراطية الدين المسيحي نسمع بولس الرسول يقول « .. في المسيح لا يهودي ولا يوناني ، لا عبد ولا حر ، لا ذكر ولا انثى ، لان كلهم واحد في المسيح يسوع » . وقد ظلت البلدان المسيحية قروناً طوالاً قبل ان تفهم المعنى العميق الذي انطوت عليه هذه الالفاظ . وقد سعى الى تطبيقه أولاً التلاميذ المجهولون في انطاكية الذين بدأوا في ايصال الدعوة الى اليونانيين واليهود على السواء .

واليوم قد أُبطل الرق في العالم المتحضر ، لان المسيحيين قد حاولوا تفهم معنى الحرية الحقة في المسيح . وحيثما تغلغلت روح المسيح وتعاليمه ازدادت حقوق المرأة ونمت بقسط اكبر من الحرية . وتدلنا حياة بريسكلا وخدمتها على علو قدر المرأة المسيحية ونفعها في الحياة . وحيال الميول الجنسية المتحزبة والمظالم الاقتصادية ، والتمييز بين الرجل والمرأة ، تقف الكنيسة المسيحية اليوم موقف المقدر المدرك لقولة بولس المأثورة « الكل واحد في المسيح يسوع » .

أناشيد الشاد الراشد



أنسيمس الشارد الراشد

مثـل الابن الضال الذي ضربه المسيح غفران الله لأبنائه الشاردين ، وتصور رسالة بولس الرسول الى فليمون قصة اهتداء عبـد شارد . وهي تقابل وتشابه القصة التي رواها المسيـح ، وتعلمنا أمثولة رائعة : أنه لزام علينا أن نغفر للآخرين كما غفر لنا .

وتلك الرسالة القصيرة التي بعث بها الرسول الى فليمون تجيء في ختام رسائل بولس ، ولعلّها كانت فكراً طارئاً . وهي - وقد استترت بين كثير من الرسائل المطولة - تمتاز في أنهـا لم توجه الى كنيسة معينة ، ولم تُعن بشئون كنيسة بالذات ، بل وجّهت إلى شخص في مسئلة شخصية . ولذلك يرتاب بعض الشراح والمفكرين في ملاءمة وضعها بين دفتي كتاب مقدس ، لأنها لا تتضمن موضوعاً عقائدياً ذا شأن ، ولا تذيع إعلاناً جديداً من الحق الالهي .

على أنهـا تشرح ، في أسلوبها البسيط ، أهمية الغفران والمسامحة في العلاقات المسيحيـة ، وتعلن قوة يسوع في تجديد حيـاة البشر ، وإدخال التعديل على المستوى الاجتماعي الأثيم .

والقصة من أروع القصص الأخاذة التي حواها تاريخ الكتاب المقدس .

ففي مدينة كولوسي عاش شخص كان قد اهتدى إلى المسيح على يد بولس الرسول . وكان الرجل — واسمه فليمون — موفقاً مفلحاً .

والظاهر أن بولس لم يزر مدينة كولوسي (٢ : ١) ، ولذلك يرجح المفسرون أن فليمون هذا وقع تحت نفوذ بولس وسحر قوته ، وهو ينادي بالدعوة المسيحية في مدرسة تيرانوس بمدينة أفسس . ولما كان فليمون تاجراً ، فلعله كان قد انطلق الى أفسس ، المدينة التجارية في ذلك العصر ، لشراء السلع أو بيعها في سوقها ، وعقد الصفقات التجارية التي تدُر عليه ربحاً وثروة . ولكنه عثر هناك على ثروة أعظم — غنى يسوع المسيح . وعلى أي حال فمن المرجح جداً ان فليمون سمع من بولس في خلال رحلته الثالثة دعوة الانجيل ، فقبل المسيح ربا ومخلصاً . وأغلب الظن ان بولس ودّع فليمون بعد اللقاء ، بأن أوكل اليه رسالة ومهمّة : « ليس في وسعي أن أزور كولوسي شخصياً ، ولكن زميلي العامل معي في المسيح - ابفراس - هناك يقوم بنشر الدعوة عينها ، فاحمل علم الشهادة معه لربك ومخلصك في وادي فريجية كله » . ولما عاد فليمون الى وطنه بدأ عمله ، وبث الدعوة في بيته ، الذي غدا مركزاً للنشاط المسيحي ومباءة للدعوة المسيحية ، بدليل قول بولس له في مستهل رسالته : « . . . إلى فليمون المحبوب والعامل معنا والى أبفية المحبوبة (زوجته) وارخبس المتجند معنا (ولده) وإلى الكنيسة التي في بيتك . . . » .

وكان لفليمون — شأن غيره من أغنياء اليونان والرومان في ذلك

الزمن — عبيد واماء . و بين هؤلاء عبد يدعى أنسيمس ، ارتكب — كما يُفهم من الرسالة — مخالفة ما . واضاف إلى هذا الجرم أن هرب من بيت مولاه بعد ان سرق بعض الأشياء ذات القيمة . ولعله اراد بذلك أن يعوّض لنفسه ، بعض ما عانى في سني حياته التي قضاها في الرق . ولكن القانون الروماني في ذلك العصر كان يحكم على العبد الهارب من مولاه بالتعذيب والصلب . وكما كان يفعل غيره ممن طاردهم القانون ، فرّ ذلك العبد الى مدينة رومية ، تلك العاصمة الكبيرة التي قال عنها احد المؤرخين « البالوعة التي تسربت اليها كل فضلات العالم » . وهناك فكر صاحبنا ان يندمج في زمرة زملاء له من المجرمين والعبيد الهاربين .

ولكن حدث له في رومية حدث عجيب ، ففي المكان الذي حاول الاختفاء فيه كُشف أمره . إنما الذي عثر عليه ليس سيده ولا رجال القانون ، بل الله سيد جميع الناس. هناك تحدّثت محبة الله الى ضميره عن طريق أسير مقيد إلى جندي روماني . وكان ذلك الاسير هو الشخص ذاته الذي لقّن مولاه الايمان المسيحي . وتُرى أية كلمة من كلمات بولس مسّت قلبه الاثيم ؟ أكانت شبيهة بما ورد في رسالته الى رومية : « إذاً لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع السالكين ، ليس حسب الجسد ، بل حسب الروح » . ثم أكان يسير في شوارع رومية وطرقاتها خائفاً مذعوراً خشية أن يعرف أحد سرّ ماضيه ؟ وهل كشفت نظراته المسترقة سرّ قلبه

وما أخفاه صدره ؟ ان أنسيمس قد وجد في حرية الانجيل ، لا العزاء والفداء والشجاعة فقط ، بل باعثاً جديداً لحياته .

ولم يكن اعترافه بالمسيح ذروة ما بلغ اليه ، بل نقطة التحول والابتداء في الخدمة المسيحية . وكانت العادة المألوفة في تلك الأيام ان يطلق الموالي على عبيدهم أسماء تحمل بعض المعاني . فهل أطلق فليمون على عبده أنسيمس لقب « نافع » آملاً ان يؤدي فيما بعد خدمة نافعة . في هذا قد خاب أمله في أول الامر لأن بولس يقول في رسالته إلى فليمون : « كان قبلاً (غير نافع) ». و بعد أن صار مسيحياً استطاع ان يقول بولس لفليمون : « لكنه الآن نافع لك ولي » .

ونحن لا نعرف بالضبط متى وقف بولس على قصة العبد كلها ، ولكنه على أي حال أدرك هو وأنسيمس في غير ابطاء أن العبد الشارد ـ وقد صار الآن راشداً ـ لا يقدر على السعي الى الحياة الكاملة في المسيح ما دامت لوثة الماضي عالقة بحياته . ومهما يكن في نظام الرق من شر ، فان ذلك العبد قد أساء الى مولاه فيما مضى بطرق كثيرة . ولزام عليه الآن أن يصلح فيما بينه و بين سيده قبل أن يستطيع القول مع الرسول « أنسى ما هو وراء وامتد إلى ما هو قدام ، الى جعالة الدعوة العليا في المسيح يسوع » .

وفي قبول يسوع الجليلي مخلصاً له ، قد تمكن أنسيمس العبد من حل كثير من مشكلات حياته ، ولكن المسيح يثير أيضاً عدة من المشاكل . فنيره هيِّن وحمله خفيف ، ولكن طريق الحياة المسيحية ليس مفروشاً

بالزهور والرياحين ، فهي تستلزم الشجاعة والأمانة والانصاف ، حتى من الانسان الذي عانى كثيراً من المظالم والاعتساف .

والرسول بولس في هذا الحادث نموذج جليل للتأدب المسيحي ، فهو يلح على صديقه فليمون ويتوسل اليه أن يقبل العبد السابق كأخ مسيحي . ومع أنه أراد أن يحتفظ به لخدمته ، فانه لم يرد ذلك بدون رضاء فليمون ، وقد كان المولى والعبد كلاهما مدينين لبولس كأداة لخلاصهما . وكان بولس قد وثق بأن فليمون لا يمانع في بقاء من كان عبداً له — في مدينة رومية للقيام على خدمة الرسول الأمين والاسير الكبير ، ولكن من أجل الاثنين — من اجل العبد الذي أساء واناب ، ومن اجل السيد الذي أُسيء اليه — اراد ان يلتقيا معاً ليعترف احدهما ويُغفر له ذنبه ، ويصفح الآخر ويكون لعبده غفوراً باراً .

ولنا أن نثق أيضاً بأن فليمون قبل أنسيمس ، وذلك لأنه كان مثالاً للعفو المسيحي ، وبعيد أن نتصور ان يرفض هذا النداء الكريم من ابيه الروحي . ثم هل يعقل ان يذيع الرسالة التي تلقاها من الرسول ، ويسمح أن تقرأ في الكنائس إذا لم يكن قد لبّى دعوتها وقبل عبده الشارد أخاً مسيحياً له .

ولا نعتقد البتة ان العلاقات القديمة بقيت على ما كانت عليه بعد ان تشبّع كل منهما بروح الشركة المسيحية . وقد ظهر على مدى العصور قوم وقفوا الى جانب الاحتفاظ بنظام الرق، وناصروه استناداً الى وجوده في الكتاب المقدس ، كما يوجد في هذا العصر قوم يجادلونك مدّعين ان الحرب

ستبقى في العالم لان ذكرها ورد في الكتاب المقدس . وقد قضى الجنس البشري اجيالا قبل ان يدرك هذا الحق ، ولكن المسيحية هي التي ألغت الرق في آخر الامر بعد طول النزاع . والدين الحق يستخرج من الانسان أفضل ما يكمن في نفسه من بواعث الخير ، ولذلك نظن ان فليمون كان خير الموالي وأبرّهم واكثرهم تسامحاً وأشدهم رعاية ، وان أنسيمس كان أطوع العبيد واكثرهم أمانة واحتراماً لسيده . ولكن على مرّ الزمن أحست الجماعة المسيحية أن هذا الموقف ليس كافياً .

وليس علاج الرق أن نخلق العبد الموالي المخلص، ولا السيد الرحيم البار ، ولا قوانين الحكومة الساهرة اليقظة . وقد كتب الاستاذ « ولاس » أحد كبار علماء القرن الماضي مقالا يصف زيارة له إلى بلاد الأمازون في أميركا الجنوبية . وعنده أن أشنع ما رآه في نظام الرق السائد في أميركا الجنوبية هو اختفاء الشعور بالمسئولية الفردية . فحتى حينما تتوفر لهم أسباب الملاهي ويعنى بهم في حالات المرض ، فان لعنة الرق باقية لا تزول . وفي هذا يقول : « أفي وسعنا أن نقول ان الرق صالح له ما يبرره ؟ وهل من الصواب ان نحتجز فرداً من اخواننا في الانسانية ونبقيه في حالة الطفولة وهو بالغ رشده ؟ ان ما تمتاز به الرجولة من المسئولية والاستقلال الذاتي هو الذي يطلق أسمى ما في جنسنا من قوى وجهود » .

وقبل نصف قرن أُلغي نظام الرق في اكثر بلدان العالم . وقد يبدو غريباً ان بولس وغيره من كتّاب العهد الجديد لم يعيبوا هذا النظام القاسي غير الانساني . ولكن انجيل يسوع المسيح ليس دعاية ثورية بل هو رسالة

إلهية تطلق الجنس البشري من كل قيد وأسر . فقانون تحرير العبيد يكتبه مثلا الرئيس لنكولن ، قد يلغي نظام الرق في الولايات المتحدة ، ولكنه لا يمس المشكلة الأعقد والاكبر ، ونعني بها اسباب عدم المساواة الاقتصادية والسياسية . ولو كان بولس قد وضع قواعد معينة محدودة لمكافحة نوع الرق الذي كان سائداً في الامبراطورية الرومانية في عصره ، لما كان في وسعه أن يقدم لنا المبدأ العام لهدم نوع آخر من أنواع الرق ، ولا النور المشرق المستمد من روح محبة الله العاملة في الناس التي تطهر وتهذب كل العلاقات القائمة بين الانسان وأخيه الانسان . وحين يأخذ المولى والعبد ، رب العمل والمستخدم ، صاحب رأس المال والعامل — حين يأخذ هؤلاء المسيحية اخذاً جدياً ، يرون أنفسهم قبل كل شيء انهم اخوة ، لأن تحت ظلال الصليب ، تختفي كل اسباب التفرقة والتحاسد والتنافس والبغضاء .

ومما يقوله علماء التاريخ ان نظام الرق الذي كان يحسب الفرد متاعاً في الامبراطورية الرومانية ، كان على الاقل افضل من النظام السابق له وهو قتل أسرى الحرب بالجملة . ولما أستبدل هذا النظام الروماني في القرون الوسطى بالنظام الاقطاعي الذي كان العبد مقيداً فيه بمولى معين عن طريق الأرض ، لم تختف مساوىء العلاقات البشرية . وفي نظامنا الصناعي الحديث نرى ملايين من الناس مقيدين بسادتهم كآلات للانتاج . ورغبة في البقاء لا مندوحة لهم من بيع عملهم كسلعة في الانتاج الصناعي . أجل ، قد تحسن مستوى المعيشة ، ومُنح العامل امتيازات لم يكن يتمتع بها غير الأغنياء ، ومع ذلك فان نظامنا الاقتصادي السياسي في عصرنا لا نعتبره مثلاً أعلى . ونحن

نفكر وندبر لوضع علاقات اجتماعية افضل للمستقبل . ولا يخدعنّ احد نفسه ، فانه لا يليق بنا ان نغرق في آمال خيالية عن النظم الوضعية التي يضعها البشر . وقد يكون وضع ما من أوضاع الاشتراكية، الخطوة المنطقية التالية لهدم المظالم والمساوىء في نظامنا الحالي ، ولكن بدون الفكرة المسيحية عن الانسان ومكانته في نظر الله ، فان كل المشروعات التي من صنع الانسان لإنشاء عالم جديد او نظام جديد مقضيٌّ عليها بالفشل . ولن يمكن خلق عالم أفضل إلا على أساس الأخاء المسيحي .

أبولس الفصيح



أبولس الفصيح

كان أبولس رجلاً دولياً بمعنى الكلمة . فهو قد ولد في أفريقية ، وصار تلميذاً في آسيا ، وأضحى بشيراً ورسولا بالانجيل في أوربا . هو الشخصية الدولية الشائعة الوطن في العهد الجديد ، ومع ذلك لم يُذكر عنه — خلا الحادثة التي رُويت في سفر الأعمال ص١٨ : ٢٤ — ٢٨ — إلا النذر القليل في السفر المقدس .

في مدينة الاسكندرية ، التي بزّت أثينا وتفوقت عليها كمركز للعلوم والثقافة اليونانية — تلقّى أبولس علومه .

وفي مدينة أفسس ، التي صارت قلعة المسيحية في الشرق في أواخر القرن الأول — تطعّمت نفسه بأسرار المسيحية العميقة .

وفي كورنثوس ، المدينة التجارية العظمى في بلاد اليونان في ذلك العصر — تولّى تعليم الكنيسة وتدريبها .

فهو يهودي في ماضي تاريخه ، يوناني في ثقافته ، مصري في جنسيته .

ويشير يوسيفوس المؤرخ اليهودي — مقتبساً عن المؤرخ سترابو — إلى النفوذ الخطير الذي تمتع به اليهود ، والنصيب الذي ساهموا به في حياة مدينة الاسكندرية . ونرى سترابو يقول في صدد عبودية بني اسرائيل في مصر « . . . ولذلك كانت هذه الأمة في مصر قوية النفوذ لأن اليهود كانوا في الأصل مصريين » . ويذكر يوسيفوس في مقام آخر أن يوليوس قيصر أقام

عموداً من النحاس في المدينة تكريماً لليهود، وأعلن على الملأ أنهم من مواطني مدينة الاسكندرية وأبنائها الساكنين فيها.

١ — اسكندري الجنس: تباهى بولس الطرسوسي بأنه من أبناء مدينة عالية القدر موفورة الكرامة. وليس شك في أن أبولس أيضاً أشار في زهو وكبرياء إلى مسقط رأس آبائه وأجداده كان مصري التبعية، متمتعاً بسائر الحقوق المدنية. وهو بحكم الوثائق التاريخية يعتبر أول مؤمن بالمسيحية عرفناه في مصر. وقد أضيف إلى عبارة «... كان... خبيراً في طريق الرب...» في نسخة «بيزا» للعهد الجديد، عبارة أخرى يؤخذ منها أنه تلقى هذه الخبرة في وطنه. فان صح هذا القول، كان أبولس من باكورة الشهود على ذيوع المسيحية في وادي النيل. ولسنا نعرف بالضبط مَن الذي لقّن المسيحية لهذا الرسول الأول بين المصريين، إنما التاريخ شاهد على أن هذا الدين الجديد زها وازدهر في مصر في أوائل القرن الثاني فلا يُستبعد اذن أن يكون أبولس قد سمع عن يسوع المسيح في موطنه.

وكان لديه ما يحمله على التفاخر والمباهاة بمدينته الاسكندرية، إذ كانت تلك العاصمة قد بزّت أثينا في عهد البطالسة، وصارت محطاً للعلوم والمعارف في العالم كله، اليها هرع ألوف من الطلاب لدراسة الرياضيات على يدي يوسيلدس، أو علم التشريح والفلسفة على أيدي أساتذة آخرين من جهابذة العلماء. وكان في مدينة الاسكندرية أيضاً مكتبة الآثار والعاديات الكبرى. وقيل ان أحد الولاة سعى إلى توسيعها بأن أرغم كل زائر اليها أن يودع فيها نسخة من كل مجلد من مؤلفاته. ولئن كانت رومية أهمّ مدينة في العالم عند

مجيء المسيح إلى الأرض، فان الاسكندرية تجيء بعدها مباشرة، ولم تدانيها مدينة أخرى في الامبراطورية الرومانية. وازدهت رومية بعصرها الذهبي في حكم اوغسطس قيصر، فانجبت للعالم « فرجيل » و « هوراس » و « ليفي » و « اوفيد ». وفي عصر الازدهار هذا نهض في الاسكندرية فيلسوف يهودي - فيلو - كان له أبلغ الأثر في عالم الفكر الديني. ورام في فلسفته التوفيق عن طريق الرموز والتمثيل، بين تعاليم العهد القديم وحكمة الاغريق. ولم تكن آراء افلاطون والرواقيين في عرفه تتناقض مع اليهودية. وليس شك في أن أبولس سمع في مدينته محاجة هذا الفيلسوف وتعليمه يوم وقف إلى جانب اليهودية ضد عقائد الملحدين، والقائلين بتعدد الآلهة، واللاأدريين.

٢ — وقيل عن أبولس انه كان « رجلاً فصيحاً » وتقول ترجمة أخرى « رجلاً عالماً ». والكلمة اليونانية التي نُعت بها "logios" لم ترد إلا هذه المرة في كل أسفار العهد الجديد. ومعناها رجل حاذق متضلع في الآداب والفنون أو في علم الكلام. ومن هذا يؤخذ أن أبولس كان الوحيد بين قادة الكنيسة الأولى الذي حظي بالتعليم الجامعي، ونال منه حظاً أوفر من استفانوس أو لوقا أو حتى بولس نفسه.

ومن المفاخر التي تعتز بها المسيحية أنها لا تشبع فقط حاجات الفقراء والمتواضعين، وتهب رجاء المنبوذين والمطرودين، بل انها تكشف للعلماء أيضاً عن مصدر السلام والفرح. ففي بساطتها الرائقة، وفي أعماقها الفائقة، تجد نفس العالِم شبعاً وريّاً لأن المسيح هو الحق، كما أنه أيضاً الطريق والحياة. ففي دينه القويم لن يمكن أن تكون هناك أية معارضة للمكتشفات

العلمية أو المعرفة الجديدة . وليس معنى هذا أن ينقاد المسيحيون إلى كل زعم مستحدث، ويتبعون كل مدّعٍ في العلم والعرفان إنما معناه أننا نستطيع أن نجابه العالم المتبدل المتطور بروح خلو من التعصب والاستبداد بالرأي. لأننا نقدر أن نستكتشف لأنفسنا ظواهر جديدة للروح الذي أُرسل ليرشدنا إلى كل الحق.

ولسنا ننكر أن هناك نفراً من العلماء غير المتدينين . وأن كثيرين من المفكرين لم يظهروا روح الولاء والخضوع ليسوع المسيح . ولكن الى جانب هؤلاء مئات وألوفاً من قادة الفكر في العالم يخرّون ساجدين عند قدميه . وليس يقدر أحكم حكماء العالم أن يبلغ مرتبة عقلية سامية بحيث يستطيع الاستغناء عن المسيح أو عدم المساهمة بنصيب فيه .

ومع أن أبولس كان على الأرجح من حملة الشهادات والدبلومات من مشاهير أساتذة الاسكندرية، فانه ليدهشنا أن نسمع عنه شهادة كاتب سفر الأعمال عن تدريبه الخاص في الكتاب المقدس حين يقول عنه : «... مقتدر في الكتب .... خبير في طريق الرب» . ولا غرابة فهو قد ترعرع في تلك المدينة العظيمة التي فيها بذلت الجهود للتوفيق بين الفلسفة والوحي . ولم تكن مدرسة فيلو منصرفة الى تأويل الكتاب المقدس ليتفق مع حكمة الاغريق وحسب . فان كثيرين من اليهود ، مسوقين بالتحمس لليونانية ، و باستنباط الرموز من الكلام الظاهر ، قد غضوا الطرف عن تعاليم أسفار العهد القديم الصريحة . ولذلك كان هيناً على علماء ذلك العصر ـ بالالتجاء الى أساليب رمزية ـ القضاء على المطاليب القاسية التي تضمنتها

الحقائق الخالدة في الكتاب المقدس ، كما يفعل اليوم بعض علماء هذا العصر في استنباط بعض النظريات الفجة . وقد كان أبولس «مقتدراً في الكتب» ، واقفاً على المآسي والأحزان والمخاوف والحماقات التي لابست الانسان كما صورتها هذه الكتب . وقد عرف مزاميرها الجليلة السامية ، وأمثالها البديعة الخارقة ، ونبواتها القوية المقتدرة . وفوق كل شيء وضع أصبعه على ذلك الخيط القرمزي الذي تخللها — طريق الرب الذي فيه الغفران والخلاص من الخطية . ونحن في السعي الى الاستزادة من أسباب اللذة العقلية ، والاختبارات الدينية ، قد نميل في هذا العصر الى اغفال مصدر اختبارنا في الشئون الخالدة — ألا وهو الكتاب المقدس ، الذي وجد فيه أبولس معيناً لا ينضب من المعرفة .

٣ — « وكان وهو حار بالروح يتكلم ويعلّم بتدقيق ما يختص بالرب عارفاً معمودية يوحنا فقط » . فكأنه الى جانب مواهبه العقلية قد امتاز أبولس بحماسة نادرة وروح متزنة . فلم يكن عالماً جافاً ، ولم يسرْ في عمله كمن يؤدي واجبات مهنة وحسب . بل سعى الى بلوغ مثل أعلى . وكلمة « حار » معناها في الأصل « يغلي » . وهذه الكلمة الدقيقة تصف رجلاً ذا نشاط غير محدود ، وعزم أدبي قوي ، وحيوية روحية وثابة ، له ميل شديد الى اكتساب الناس للحق الذي عرفه . وكان على شيء من تعاليم يوحنا المعمدان عن المسيا . ولكن هذا القليل الذي عرفه أيقظ حبه وولاءه لذلك الشخص الباسل ، بمروحته في يده لينفض غبار الظلم والخطية عن العالم .

وربما لم يكن قد سمع عن موت يسوع . وبلا شك لم يسمع عن قيامته . وجهل جهلاً تاماً مهمة المعزي الذي جاء ليبكت العالم على خطية ، ويهدي التلاميذ الى طريق الحق . ولكن لا يسع المرء إلا الاعجاب به لشدة تحمسه للحق الذي عرفه .

والتجربة التي يستهدف لها العالم عادةهي أن يفرط في الاهتمام بالاستزادة من ذخائر معرفته بحيث يفقد كل شهوة للحق . ومتى عمل الانسان على تدريب عقله في غير تحيز لتقدير الحقائق الماثلة أمامه كما هي ، قد يجد نفسه ، ليس خلواً من أي تحيز او تعصب في الرأي وحسب ، بل خلواً أيضاً من هدف معين يتخذه موضوعاً لولائه وحبه . وقد يصير بعيداً عن الغرض في أحكامه بحيث يتجرد من أي عطف . وفي سبيل ميله الى النقد يفقد كل غيرة ويمسي ولا شيء لديه جدير أن يتألم او يموت لأجله .

وفي الحياة اليوم كثير من العوامل التي ترخص بسببها عواطفنا ومشاعرنا . وبفضل الراديو وصور السينما نشترك في أفراح وآلام العالم كله . فاذا وقعت نكبة في منجم ، او حدثت فاجعة في مصرع ملك او وزير ، تتمثل الحوادث أمام أعيننا . وفي ساعة من الزمن قد يتماوج في أنفسنا مزيج من العواطف المتدافعة . وأحياناً نتخيل اننا قد تأثرنا جداً ، والواقع أن ميولنا وعواطفنا حيال كل شيء نبيل تضيع هباء فلا ثمراً نقطف ولا خيراً نجني . بل نمسي قساة ، عاطلين عن الشفقة والحنان ، بسبب هذه الهزات العاطفية التي تكون أواخرها أشر من أوائلها .

ولم يكن أبولس محوطاً بشيء من هذه العوامل التي تذري العواطف

عصافة . فان عصره كان عصر السفسطة والمغالطة، تباهى فيه الناس بالوقوف الى جانب فلسفة الرواقيين حيال آلام البشرية وأوجاعها . واذ يذكر تاسيتوس المؤرخ ، وصف ذلك العصر ، يشير الى تدنيس الحيا كل المقدسة ، والزنى والفحشاء في أماكن العظمة والجاه ، والى البحر وقد غص بالمنفيين الطريدين ، وصخور الجزائر وقد تخضبت بدماء القتلى . . . في كل شيء جريمة ، وفضيلة مهدورة . أما هذا الشاب الاسكندري فكان على نقيض الرأي السائد في عصره . فالى جانب مفاخرته بجنسه ومزاياه العقلية أبدى عطفاً عميقاً في الشهادة الحارة الغيورة .

٤ — « وابتدأ يجاهر في المجمع » :

كان بطرس ويوحنا مع يسوع نفسه ، ولذا أبديا بسالة أمام الحكام والشيوخ والكتبة . وقد برهن هذا التلميذ الشاب على أنه جدير حقاً بأن يكون من أتباع قائده يوحنا المعمدان الذي وقف في وجه جماهير الشعب وقال : « يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من هذا الغضب الآتي . اصنعوا أثماراً تليق بالتوبة » . وكانت الحياة مع المسيح في تلك الأيام الاولى مليئة بالقوة والعزم والثورة النفسية . وحتى قبل أن يعرف ملء المسيح ، هجر أبولس اصدقاءه القدماء وفلسفته، وألقى قرعته مع الناصري الذي نادى به يوحنا . ويقيناً منه بشدة افتقار العالم الى التوبة الكاملة جاهر في المجمع في شجاعة واقدام . واليوم تسمع قوماً يشخصون مرة بعد أخرى ادواء الكنيسة ويصفون أساليب علاجها . ولكن ما أشدها ثورة تلك التي نحدثها، لو بدأنا حيث بدأ أبولس بالدعوة الى التوبة . والكبرياء تحول بيننا

وبين الاعتراف بخطايانا التي تمتص حياة الكنيسة . ولعله ينهض شاب غيور مثل أبولس، فيذكرنا ان الفأس قد وضعت مرة أخرى على أصل الشجرة !

٥ — « فلما سمعه أكيلا وبريسكلا أخذاه اليهما وشرحا له طريق الرب بأكثر تدقيق » — رجل تخرج على أيدي الفلاسفة يذهب ليتلقى الدرس على أيدي صانعي خيام ! فكأن كل علومه الاسكندرية لم تكن كافية لارشاده الى الحق الكامل . فصار كطفل صغير ليعرف بأكثر تدقيق طريق الرب — ورغم تقدمه في علومه، وحماسته المتقدة، وشجاعته النادرة، كان أبولس وديعاً متواضعاً . فأخذ الحق عن أي إنسان، كائنا من كان .

وكادت هذه الحادثة تودي الى انقسام في الرأي وانشقاق في الكنيسة في أفسس، لو لم يكن الجانبان على شيء كثير من التواضع والامتلاء بالروح الحق . فكان ممكناً لأبولس أن يقول : « هذا هو المسيح كما عرفته، معلماً وديعاً يدعو الناس الى التوبة والثمر الصالح في الحياة الجددة، فلا حاجة بي لتعليمكم » . وكان ممكناً لبريسكلا وأكيلا أن يتهماه كمجرد استاذ من أنصار الفلسفة العقلية أو المنادين بمسيح أخلاقي ليس إلا . . . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث .

« شرحا له طريق الرب بأكثر تدقيق » أو « بأكثر تشديد » أو « بأصح تعبير » . وههنا نموذج للعقل الحر المفكر، الذي يقبل الحق حتى من أوضع الناس شأناً اذا اقتضى الحال . ونحن ننظر الى حرية الفكر كأنها طور يبلغه الانسان بعد أن يكون قد ألقى عنه بعض العقائد . وقد يكون معنى التقدم في عرفان الحق وتقديره هو الايمان بشيء لم تؤمن به من قبل .

وليس الرقي في المعرفة هو بالضرورة إلقاء بعض العقائد والاحكام التي كانت موضع اعتزازك . وليس الرقي في الشئون الروحية معناه بالضرورة المطالبة بقانون إيمان أقصر .

« طريق الرب بأكثر تدقيق » او « بأكثر تشديد » . وبعد أن زالت هذه الأزمة جنح أبولس الى مقام اكثر شدة وتحفظاً . وربما اتهمه بعض الاصدقاء السابقين بضيق العقل وتقييد الفكر . وفي القرن العشرين اهتمام كبير بالشئون اللاهوتية كما كان في القرنين الأول والثاني ، ويدور فيها البحث باسم الحرية التي تسعى الى جعل أفكارنا الدينية متفقة مع الميول المعاصرة . وليست حاجتنا الى « فلسفة لاهوتية سليمة »، بل الى فلسفة لاهوتية مجازفة جريئة ولا تقوم قوة الكنيسة ، وثقتها بنفسها ، وتحقيق آمالها ، على ابقاء ذاتها وصيانة نفسها . كلا ليست قوتها في حياتها بل في استعدادها للموت لأجل عقيدتها الثابتة ، وتشبثها بالحياة الفضلى الناهضة — الحياة التي قد تُصلب وتدفن وتقوم في اليوم الثالث !

٦ — « وفي أخائية ساعد (أبولس) كثيراً بالنعمة الذين كانوا قد آمنوا . لأنه كان باشتداد يفحم اليهود جهراً مبينا بالكتب أن يسوع هو المسيح » . واذا عدنا الى الفصول الاولى من سفر التكوين نرى نوح قد تنبأ بأن اصغر اولاده سيكون خادما لخدم اخوته . وههنا في بداية العصر الأول المسيحي نرى شابا من أرض سلالة حام يؤدي خدمة جليلة في آسيا وأوروبا . ومما قاله المؤرخ « ممسن » انه الى أفريقية يرجع الفضل في صيرورة

المسيحية دين العالم الجامع . ومهما يكن الاساس الذي ارتكن عليه في هذا القول فان أبولس الاسكندري ، والتلميذ المتعدد النواحي ، يبين لنا بحياته وتعليمه ان المسيحية لا تعرف حدوداً للجنس او الثقافة . والمسيحيون المصريون ليذكرون بالفخر ان ربيب بلادهم قد أعان المؤمنين كثيراً في أخائية من اعمال بلاد اليونان . وقد قال بولس عن كنيسة كورنثوس : « أنا زرعت وأبولس سقى ولكن الله كان ينمي » . وان شخصاً يشاطر بولس الكرامة ، لجدير حقا باعجابنا وتقديرنا ولو كان من التلاميذ الذين لم نعرف عنهم إلا القليل . ويروى ان حزباً نهض في كورنثوس وقال « نحن من انصار ابولس » ولكن اللوم الواقع عليه في ذلك لا يزيد عن لوم بولس الذي سمح لنفر ان ينهضوا معه ويكونوا من انصاره . وبولس نفسه لا يذكر هذا التلميذ الامين إلا في كثير من الاعجاب والعطف . اذ وجد فيه زميلا امتاز بالمقدرة الفائقة والمواهب الخصيبة . وكانت حياته نموذجا للمسيحي الذي يصبو الى ارقى واسمى ضروب الحياة لأجل سيده . وليس يصعب على تابع المسيح ان يصبو الى الجمال ، والحق ، والصلاح ، لان حياته — كما قال احدهم — « مسندة مدعمة ، منظمة مدربة ، مخصبة مثمرة ، بيقين حار في الله وفي محبته الفائقة ، وقداسته الكاملة » .

أم روفس المضحية



أم روفس

لنا بولس الرسول رجلا خلواً من الرُبط العائلية . ولقد كان بسبب حاجته وعجلته في إتمام مهمّة بناء الكنيسة بين الشعوب الوثنية — مقداماً ممهداً للدروب والمسالك ، كما قال عن نفسه على لسان الشاعر مايرس :

« أجل ، وأنا محروم إيناس الأخت والابنة ،
« وصحبة الوالد والولد ،
« وحيداً في الأرض ، وطريداً فوق الماء ،
« أمضي صابراً حتى أكمل العمل » .

ولا تروي لنا أسفار العهد الجديد إلا النذر اليسير عن أسرة بولس فقد قيل ان ابن اخته في أورشليم انبأه بالمؤامرة التي كانت قد أُحبكت للفتك به، وهو في طريقه من أورشليم إلى قيصرية تحت حراسة مسلحة . على أننا لا نعرف شيئاً عن أخته . أما الذي نعلمه يقيناً أنه استمتع بكرم الضيافة في بيوت مختلفة، وان يكن هو نفسه رجلاً لا بيت له . ومن قصة سفر الأعمال نعلم أنه في كورنثوس أقام فترة من الزمن مع بريسكلا وأكيلا، وهما من صانعي الخيام مثله . وفي رحلته الأخيرة إلى أورشليم أقام أياماً كثيرة في بيت فيلبس البشير . ومن البيوت التي استضافته واكرمت وفادته ، بيت ليدية بائعة الأرجوان ، وهو أول بيت قبله في أوربا وكان بولس قد رأى في حلم أن رجلا من مكدونية يومىء اليه أن يعبر الى أوربا لمعونته . ولكن باكورة

المؤمنين في فيلبي لم يكن رجلا ، بل امرأة . ولما دخل المدينة لأول مرة ، سار بمحاذاة النهر ، حيث موضع الصلاة . وكان أول مَن سمعه في أوربا جمعية الصلاة ، من جمعيات السيدات .

وفي رسالة رومية (١٦ : ١٣) نسمع عن امرأة أخرى ، أم روفس ، كان لها أثر كبير في حياة بولس . فأم روفس هذه لم تكتفِ بتربية ابنها وتنشئته على الفضائل المسيحية ، بل قد شجعت ذلك الجندي المستوحش الجاهد في سبيل خدمة يسوع المسيح ، كأنه ولدها .

ومَن كان روفس هذا ؟ ومن هي أم روفس ؟ لئن كنا نجهل اسمها ، فان لدينا من الاسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأن روفس هذا هو بعينه الذي ذكره مرقس في بشارته (مرقس ١٥ : ٢١) التي يبدو لنا انها كتبت للرومان أيضاً . وهنا يتحدث مرقس عن واحد يدعى سمعان القيرواني أبو الكسندرس وروفس . وسمعان القيرواني هذا هو الذي كان آتياً من الحقل في يوم الصلب ، وكلِّف أن يحمل صليب المسيح . وذكر ولديه باسميهما في بشارة مرقس يحملنا على الاعتقاد بأن سمعان صار فيما بعد مؤمناً بالمسيح رباً ومخلصاً . وإلا فما الداعي ان يُذكر اسم رجل لم يكن في تلك الساعة إلا شخصية ضئيلة القدر في مأساة عظمى ، بل يذكر اسم ولديه أيضاً ؟ وأغلب الظن ان سمعان هذا غدا مؤمناً ، كسجان فيلبي ، بل آمن هو وأهل بيته واعتمدوا .

ويقيناً أن الناس الآخرين قد اشفقوا على سمعان ، وهو يشاطر يسوع النكات القاسية ، والتعييرات المرة ، في طريقه إلى الصليب ، ولا شك ان

الجنود سخروا منه. ومع ذلك فقد سار في طريق الجلجثة في تواضع هادىء . فذاع اسمه فيا بعد ، وعلى مدى الاجيال ، وذكر عنه أنه الرجل الذي ألقى عليه الجنود الرومان بعض العبء في آلام المسيح .

وفي مدينة القيروان كان سمعان قد ترك زوجته وولديه الصغيرين ، وربما كانت الأسرة قد تبعته الى الارض المقدسة . ولئن كان هؤلاء من يهود الشتات ، وعاشوا بعيدين عن أورشليم ، فانهم قد توقعوا بفارغ الصبر مجيء المسيا . وكان بيتهم ندوة البر والتقى .

ولكن كيف اتصل بولس الطرسوسي بهذا الرجل البار وزوجته وأسرته التقية ؟ لا نستطيع الجزم بقول فاصل ، على ان في وسعنا ان ندلي باقتراح مقبول : فان الكنيسة في انطاكية سورية قد تأسست ـ على ما قيل في الفصل الحادي عشر من سفر الاعمال ـ بأيدي التلاميذ الذين تشتتوا خارج أورشليم بعد استشهاد استفانوس ، وكانوا من أهل قبرس والقيروان . ونسمع فيا بعد عن سمعان آخر ـ قيل عنه سمعان الذي يُدعى نيجر ـ ويظن بعض الشراح ان سمعان هذا هو بعينه سمعان القيرواني . وفي كنيسة انطاكية بدأ التلاميذ يبثُّون الدعوة بين اليونانيين الوثنيين وبين اليهود اليونانيين على السواء . والى انطاكية قدم برنابا موفداً من الكنيسة في أورشليم ليبحث تطور الحوادث الذي نشأ عن هذا الموقف . وفي هذه المدينة دُعي التلاميذ مسيحيين لأول مرة ، لان الأمم (الوثنيين) قُبلوا رأساً الى شركة الكنيسة ، دون أن يصيروا أولاً دخلاء اليهودية. وقد حبذ برنابا ما رآه ، بل ذهب الى أبعد من هذا ، ذلك انه انطلق من تلقاء نفسه يطلب شاول

الفريسي المتنصر ، مضطهد الكنيسة يوما ما ، وكان يقضي وقته في طرسوس . ذهب برنابا الى طرسوس وألح على شاول ان يجيء ويشاركه في العمل العظيم الذي كانت تقوم به الكنيسة في انطاكية ، والمرجح أن هذا الرجل المستوحش ، الذي ما فتىء يُنظر اليه كجاسوس يُخشى غدره ، قد ألفى النصح والالفة والتشجيع في بيت سمعان القيرواني . وعلى أي حال قد صارت أم روفس أما له ، وغدت تلك المرأة التي شددت عزائم زوجها في زمن الضيق ، وأحسنت تربية ولديهما في طريق الرب — مصدر قوة للرسول بولس . لقد كانت رائدة الطريق للقديسات من النساء اللواتي بذلن الشيء الكثير لتوطيد أركان الكنيسة وإصلاح الهيئة الاجتماعية . ومن ذا الذي ينسى بسالة اليزابث فراي ، وجان دارك ، وفلورنس نيتنجيل ، وكلارا بارتون ، واديث كافيل ، وغيرهن من النساء الباسلات .

والآن ما الخواص التي امتازت بها أم روفس هذه ، وهي المثل الاعلى في الامومة ، مما جعلها ان تكون كأم حنون الى قلب بولس المجاهد في سبيل الايمان ، والمضطهد في سبيل البر ؟ وما الفضائل التي نريد أن نراها في كل أم فاضلة حقاً ؟

١ — قبل كل شيء روح التضحية . فان فكرة الامومة تتركز في التضحية والإيثار ، وفي استعدادها ان تموت ليحيا اولادها . وقد كان بولس مستعداً ان يُرجم في لسترا ، وان يُجلد في فيلبي ، وان يكافح الوحش في أفسس ، وأن تتكسر به السفينة في مالطة ، وان يموت في رومية — كل هذا بسبب تكريس نفسه للمسيح . ولكن من ذا الذي يقدّر النصيب

الذي قامت به الأمهات مثل أم روفس هذه — في توجيه تلك الروح التي قالت « أُكمل نقائص شدائد المسيح في جسمي لاجل جسده الذي هو الكنيسة » . ان بيت سمعان القيرواني الذي حمل الصليب لن يمكن ان ينسى معنى التضحية .

والتاريخ المقدس حافل بالنماذج الرائعة عن محبة الامومة التي ضحّت بأعز شيء في سبيل الله . فهناك الصورة الجميلة التي رسمها العهد القديم للأم حنة التي جاءت بولدها الصغير الى الكاهن ليخدم في المقدس . ولقد حسبت صموئيل هبة من الله ، فلّه وهبته ، ولم تحسبه ملكا لها بل ضحت بفرحها وسعادتها لكي يخدم ولدها الله في مستقبل حياته . وفي كل مرة كانت تجيء اليه بالثياب ، او الطعام ، او تقدمات الهيكل ، كانت تكرسه لعمل الآب السماوي .

وكثيرون من ذوي النفوس الباسلة الذين اقنعوا العالم مثائل الايمان والرجاء والمحبة ، قد شهدوا ان مصدر إلهامهم مستمد من صلاة أمّ ورعة تقية . ويذكر هدسن تيلور مؤسس إحدى مرسليات الصين ، بالاعجاب والامتنان، صلاة أمه لاجل ولدها الذي نشأ متهاملا متحاملا على المسيحية. ومع انه كان بعيداً عنها في وقت صلواتها وتضرعاتها ، فان قوة تلك الصلاة قد وجّهته التوجيه الصالح . ومن ذلك اليوم أخذ هدسن تيلور يعدّ نفسه ليكون رسولا للانجيل .

ويذكر لنا « ليكي » في تاريخه عن الآداب الاوربية ان أمهات القديسين أوغسطينوس ، والذهبي الفم ، وبازيل ، وجريجوريوس

النزنازي ، وثيودوريت — قد لعبن الدور الرئيسي في اهتـداء أولادهن . ثم يقول « ليست في التاريخ فترة ، مهما فسدت ، وليست هناك كنيسة ، مهما عبثت بها الخرافات — لم يزينها كثير من النساء المسيحيات اللواتي كرّسن حياتهن كلها لتخفيف آلام الناس . وقد كانت خدمة المحبـة التي بذلتها قوية الاثر في تخفيف ويلات الشقاء البشري ، وفي الوقت نفسه في رفع مستوى الـكرامة الادبية للقائمات بها » .

٣ — وهذا يأتي بنا إلى فضيلة أخرى في الأم المسيحية : وهي الغيرة في الخدمة . فالأمومة نبيلة كريمة ، لا فيا تتخلى عنه فقط ، بل فيا تعطيه أيضاً . لا في التصاغر والوداعة فقط ، بل في العمل المنتج لخير الجنس البشري ورقيّه .

ان الآداب والفلسفة اليونانية في القرن الرابع قبل المسيح لم يدانيها شيء في روعة أسلوبها وصفاء معانيها . وما يزال الفن الـكلاسيكي في أثينا يتربع فوق القمة بدون منافس، ومع ذلك فان حياة اليونان القومية العظمى لم تدم اكثر من ثلاثة قرون ، وذلك لان الاسرة هوت من مكانتها اللائقة بها . وقيل لنا ان الطبقات المنبوذة في العالم اليوناني كانت العبيد والنساء . ثم جاءت الدولة الرومانية القديمة فمنحت للمرأة حقوقاً اعظم مما كان لها في اليونان ، ولـكن سرعان ما أمست الحياة الاجتماعية والادبية في رومية فاسدة فاسقة ، ذلك لان الزواج هزل فأمسى سخرية ، وحياة الاسرة فسدت وانقلبت صورتها . على أنه في وسط هذا المجتمع الفاسد المنحل ، اعتصمت التعاليم المسيحية بقوة الايمان والرجاء في خدمة النساء لخير الجنس البشري

قاطبة . وخلع الكتاب المقدس ، كما يخلع الآن ، على المرأة حلّة من الفرح والعزاء لم يُعهد لها نظير في أي دين آخر . فهيأ للمرأة فرصة للخدمة النافعة المنتجة بسبب ما أوكل اليها من تبعات جسام . وما كان لأم موسى غير سنوات قلائل تعهدت فيها ولدها الصغير قبل ان تتبنته ابنة فرعون ، ومع ذلك قد لقنته خلال تلك الفترة القصيرة انه من أبناء شعب الله ، فانطبعت هذه التعاليم على قلبه الغض ، حتى أنه بعد مرور أربعين عاماً ، تذكر وهو في بلاط فرعون ، انه كان اسرائيلياً وان إلههم إلهه .

وكانت « سوزان وسلي » أماً لأسرة كبيرة من الابناء ، فلم تعقها مشاغلها البيتية الكثيرة عن القيام ببعض نواحي النشاط الخارجي ، ووجدت متسعاً من الوقت لتبث روح الحماس في اثنين من أولادها ، وهما جون وتشارلس وسلي اللذين ألهبا انكلترا كلها غيرة وحماساً ، وغيّرا اتجاه حياة المجتمع الانكليزي كله . ويقول المؤرخ جرين عن حركة الميثودست التي رعاها ذانك الاخوان : « أُعيدت الكنيسة إلى حياة جديدة ونشاط جديد . وأدخل الدين الى قلوب الناس روحاً جديداً وغيرة أدبية أخلاقية . وفي الوقت نفسه صقلت أدبنا ، وهذّبت أخلاقنا ، وسادت روح جديدة من الاحسان وعمل الخير ، فاصلحت سجوننا ، وادخلت مواد الرأفة والرحمة والحكمة الى قوانين العقوبات ، وابطلت تجارة الرقيق ، و بدت تباشير الخير في أساليب التعليم »

٣ — وهناك فضيلة أخرى في الامومة الحقة ، هي العطف الشامل الواسع المدى . قلنا انه في انطاكية اكتسب بولس صداقة أم روفس . وفي

تلك المدينة واجه المسيحيون لأول مرة المشكلة التي تخلق الاضطراب في العالم اليوم . فالكبرياء العنصرية ، والتعصب للقومية ، هما لعنة هذا العصر وحين تفسد دعاوي الدم والتربية والوطن المثل المسيحي الاعلى للاسرة والدولة ، يضعف الامل في خلق نظام عالمي جديد قائماً على الاخاء والعدالة . وحين يخضع كل شيء للدولة او لأي نظام سياسي ، تنقلب أوضاع الأسرة ، وتمسي مصنعاً لانتاج الجنود لتأييد تلك الدول أو ذلك النظام .

وهل يقدر العالم أن يفي دَيْنَه للنساء الباسلات اللواتي تحدّين العادات والأوضاع الاجتماعية المألوفة ، وقبلن مبادىء ومُثلاً جديدة لتحطيم عوائق الكبرياء والظلم والاعتداء . كانت السيدة « هاريت بيتشرستو » أماً لأسرة ، ومع ذلك فقد كافحت ضد مساوىء الرقيق التي عرفتها أميركا منذ قرن مضى . ووضعت كتاباً في الموضوع ، كان من اكثر الكتب رواجا في عصره ، وبيعت نُسَخُهُ بالملايين . ولا يشك إنسان في انه لعب دوراً هاماً في تبديل متجهات الرأي العام . ونهضت الجماهير ، التي لم تقرأ من قبل بحثاً سياسياً ، ولا سمعت نقاشاً جديا عن مساوىء الرق الاقتصادية ، لمكافحة اللوثة التي حسبوها أشنع جرائم ذلك العصر .

وفي أميركا بدأ القوم يقدّرون عظمة ابراهيم لنكولن الخالدة ، فان آراءه في تلك الايام العصيبة التي اجتازها الشعب الامريكي في معركة الحرية ، تصلح لهذا العصر تماماً وهو القائل : « ونحن لا نحمل ضغينة لأحد ،

ونبطن حباً للجميع ، صامدين في الحق كما يعطينا الله أن نراه — لنجاهد ونكافح لاتمام العمل الذي بأيدينا . ولنعمل كلّ ما من شأنه أن يعطي سلاماً عادلا مقيما بيننا ، ومع جميع الشعوب » .

على أن قليلين يذكرون ما فعلته السيدة « سالي بوش لنكولن » في توجيه ذلك الغلام الشاذ قبل مائة وعشرين سنة . وكانت السيدة زوجة أبي ابراهيم أنجبت ثلاثة أطفال لنفسها ، وكزوجة أب كان ميسوراً لها أن تحطم آماله ومطامعه . ولكنها كانت امرأة ذات نشاط غير عادي ، مقتصدة حكيمة ، تمتاز بصفات كريمة عقلا وقلباً . وتحت إدارتها العاقلة ، لم يحصل أي احتكاك أو تحاسد بين طائفتي الأبناء . وقد أدركت « سالي بوش » من بادىء الأمر ، للمواهب الكامنة ، والقدرة الفائقة ، التي امتاز بها ولد زوجها ، فشجعته على الدرس والاستزادة في تحصيل العلم . وان أميركا ، بل العالم كله ، لتشعر بأنها مدينة لها بعض الدين في إبراز زعامة لنكولن الرشيدة الجبارة إبان الأزمة القومية ، وفي ذلك العطف الشامل الذي استفاض من قلب لنكولن حتى غمر الاصدقاء والاعداء سواء بسواء .

وقبل سنوات نشر الكاتب « بنيامين كد » مؤلفاً عنوانه « علم القوة » ، انتقد فيه حضارتنا الغربية الحديثة انتقاداً شديداً . ومما قاله الكاتب انه قد ثبت فشل المعرفة العلمية المجردة ، وانه من الحماقة أن نلتمس حلولا لمشاكل الاحياء والتجديد من هذه الناحية ووجد أساساً لائقاً للحياة الاقتصادية والاجتماعية ، لا في العقل المتزن ، بل في العاطفة المشتركة . على أننا قد رأينا أن هذه العاطفة المشتركة قد تضلّ في الوطنية الجامحة المعكوسة

القائمة على دعاوي الدم وأرض الوطن . غير أن هذا الكتاب تضمن الكثير مما يحملنا على التفكير العميق . فهو يرى أن القوة الروحية العقلية ستتركز في زعامة النساء المقبلة . وفي هذا يقول : « حينما يصير امرؤ مثالياً ، فالمرأة تكاد تكون بلا مراء مقياس مثله العليا . . . » . ويعتقد الكاتب أن فكرة الاخاء الانساني ، ووحدة الانسانية ، قد بلغت في عقل المرأة مرتبة أرقى مما بلغته في عقل الرجل . . . وان صح هذا ، فانه لزام علينا أن نولي وجوهنا صوب الأمهات في انتظار الرقي الصحيح .

في القاعة الكبرى في مكتبة الكونغرس الامريكي ، بواشنطن ، مجموعة من النقوش الحائطية تبين تقدم الحضارة ، يمثل أحدها الزراعة ، وآخر التربية ، وآخر العلوم ، وآخر الفنون ، والاخير البيت . وأول نقش في هذه المجموعة يمثل الانسان البدائي الذي عاش على الفطرة ، رجلا وامرأة اكتسيا بجلود الحيوانات ، ويجثوان أمام مذبح من الحجر الغشيم وضعا عليه ذبيحتهما . من ثمّ نرى في هذه المكتبة الكبرى أن بداية الرقي ونهايته انما في الأسرة التي تتوجه الى الله في طلب الهداية والقوة . ويمكن مواجهة مشاكل الحياة وحلها حينما تركز الأسرة اهتمامها حول مذبح الله. ان أم روفس واحدة من عظيمات النساء في الكنيسة الأولى ، اللواتي يذكرننا بهذه الحقيقة البارزة .



